

نظرات لابرويير^(١)

■ ١١ ■

لاتتم النظرات التي اقتبسناها من الأدب الفرنسي من غير اقتباس بعض نظرات (لابرويير) والتعليق عليها بما يناسبها من الآراء، وقد ترجم حياته ونقده الكاتب المطلع جورج نيقولاوس في عدد ماضٍ من أعداد المقتطف، ولكنه لم يكثر من الاقتباس منه، وكنت قد اطلعت على إعلان عن ترجمة كتابه الأخلاق، ولكنى لم أره، وفي بعض التعليق الذى نضيفه إلى نظراته ما يجعلها بذكر ما يوافقها أو يخالفها من آراء المفكرين. وقد كان لابرويير معاصراً للاروشفوكولد، وهو ينحو نحوه، وتارة يرتفع إلى مستواه، وتارة ينخفض عنه، ونجده فى بعض نظراته يتردد فى رد فضائل الإنسان كلها وعيوبه إلى الأثرة وحب الذات كما ردها لاروشفوكولد، والمفكرون مختلفون فى هذا الرد كما سيتضح، وقد درس لابرويير القضاء وزاول منصباً إدارياً فى نورمانديا، ثم عين مربيًا ومعلمًا لدوق بوربون حفيد أمير كوندى، وانتخب عضواً فى المعهد العلمى الفرنسى، وعندما أدركته المنية كان قد ألف من هذه النظرات ألفاً ومئة، فلعل إكثاره سبب تفاوته فيها، وقد وصف الفلاح الفرنسى وصفاً يندر بالثورة الفرنسية قبل أوانها.

وهذه بعض نظراته وأفكاره:

١ - إذا صح مايقولون من أننا نشفق على التعساء إشفافاً على أنفسنا أن نصير يوماً مثلهم تعساء، فلماذا لا نعطف عليهم ولانحسن إليهم ولا نشاركهم فيما ننال من النعمة إلا بهذا القدر الزهيد التافه؟!، ولهذا أسباب منها: أنه اذا كان جانب من النفس يعطف ويحسن خشية أن تصير مثل من تحسن إليه، فإن للأثرة جوانب

(١) المقتطف: ١ من يناير سنة ١٩٤٩.

أخرى تدفعها إلى الاستئثار بخيرات الحياة، ثم إن الإحسان الزهيد التافه قد يُرضى ضمير المحسن فلا يُحسُّ ألمًا، بل إن الرحمة من غير إحسان ومعونة قد يعدها من يشعر بها تكفيراً عن كثير من وسائل الاستئثار بالخير، وإن لم يصحب الرحمة برّ فتعيد إلى نفس صاحبها الاطمئنان، وتدعوه إلى استئثار الكفاح والمنافسة في خيرات الحياة. ومن عوامل الزهد في البر والإحسان الخوف إذا بذل المرء ما عنده أن يصير مثل من يحسن إليه، وكل هذا لا ينافى أن المرء قد يحسن إحساناً زهيداً تافهاً خشية أن يصير مثل من أحسن إليه، وإن الإحسان هنا من الأثرة وباعثه حب الذات، والتكفير عن وسائل الاستئثار أو عن السعادة.

على أن كثيراً من المفكرين ينكرون أن تكون كل دوافع النفس أساسها واحدٌ، وينكرون أن تكون كلها مردودة إلى عامل الأثرة وحب الذات، قال هازليت: إن أحاسيس النفس المتضاربة وأهواءها المتباينة وهواجسها المتنافرة تُبطل أن يكون للنفس أساس واحد وهو حب الذات، إذ كثيراً ما يتعس المرء نفسه لأسباب تافهة لاتفيده بل تضره، على أن هذا لا يمنع أن يكون مردُّ كثير من الأمور التي تتعس المرء إلى الأثرة الخرقاء الحمقاء التي تتعس المرء وهو يظن أنها تسعده، كما لا يمنع أن يكون الإيثار نوعاً من الأثرة كأن ترجو به النفس العلاء والحمد وطيب الذكر والظفر بالإيثار، فهي تتجنب الأثرة وتختار الإيثار لأوجه من النفع. وإذا أخذ الإنسان برأى شوبنهاور في وحدة الحياة وأنه مظهر من مظاهرها فحسب، وأن اعتبار نفسه وحدة مستقلة من خطأ الحواس والإحساس استطاع أن يتخلص من بعض أثرته إلا إذا عدَّ نفسه الممثل الأعظم لوحدة الحياة وإرادتها، وأنه من أجل ذلك أحق بالخيرات والاستئثار بها. وكان (كانت) الفيلسوف الألماني يعد الواجب المفروض فكرة أولية في النفس، وقال: ينبغي أن يعمل الإنسان بحيث يصح أن يكون عمله وخلقه مبدئاً عاماً، وهذا مشتق من قول جان جاك روسو: إن كل إنسان ينبغي أن تكون إرادته الخاصة مطابقة للإرادة العامة للأمة. وأعتقد أن كل هذه الآراء مشتقة من الفكرة القديمة التي توجد في كتب الأدب العربية كما توجد في الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام وهي: ينبغي للمرء أن يعامل الناس كما يود أن يعامله الناس، أي حب للناس ما

تجبه لنفسك. ومن الغريب أن الأستاذ توما هوكسلى (أى هوكسلى الكبير) فى مجموعة أرسطو طاليس رفض هذا المبدأ بدعوى أن كل إنسان يود أن يغتفر الناس قسوته وجرائمه وأثامه، فلو اغتفرت كل الآثام والجرائم أصبح العالم فوضى وانتشر الشر. وبديهى أن هوكسلى فسرها على غير معناها، إذ أن معناها: عامل الناس بمثل ما تود أن يعاملوك به من التعاون التام والامتناع عن القسوة والآثام فى معاملتهم لك، على أن أداء الواجب ليس فكرة أولية كما زعم (كانت) بل هى فكرة مكتسبة، ولا هى راسخة فى النفوس، بل كثيراً ما تتفى فى النفس وتحل محلها الأثرة الجامحة القاسية. ولكن مالا شك فيه أن الإنسان قد تتأصل فيه روح التضحية حتى يكون عمله يباعث نفسى عكس قوله ورأيه، كما فى قصة روبرت جرانت الكاتب الأمريكى المسماة (عمله ضد رأيه) وهى قصة رجل مفكر أبى أن يحدد عمل إنسان أودى بحياته فى إنقاذه طفلاً صغيراً؛ لأن هذا المضحى الذى أنقذ الطفل ومات فى أثناء إنقاذه قد خلف زوجة وسبعة أطفال وهو كاسب رزقهم وتحمل المنكر عليه عمله اشمئزاز أصدقائه من رأيه، ولكنه بعد زمن فعل مثل الفعل الذى أنكر تحبيذه بدافع خفى من نفسه فأنقذ طفلاً من الهلاك وهلك بسبب ذلك، وهذا يذكرنى قصة (على الحدود) لموريس لى بلان. وبها مفكر يرى أن الحروب لاتبطل إلا إذا امتنع كل إنسان عن القتال حتى ولو غزيت أمته فى عقر دارها. ولكنه لما رأى الألمان أغاروا على الحدود حمل سلاحه بدافع غريزى من نفسه وذهب ليقاتلهم وليدافع عنها، وهذا غير ما فعل رومان رولان الكاتب الفرنسى الذى أبى الحرب وأبى القتال ورفض حمل السلاح وترك فرنسا وذهب إلى سويسرا فسقط فى نظر كثير من الفرنسيين. وقد قال «كانت»: إن المرء لا يستطيع أن يحكم أن الواجب هو الذى يدفعه إلى عمل من الأعمال إلا إذا كان هذا العمل يخالف رغباته المحبوبة السارة، وليس معنى ذلك أن الواجب لا يكون واجباً إلا إذا كان كريهاً بغيضاً مخيفاً، وإنما هذه فكاهة من شيلر الشاعر الألمانى يداعب بها «كانت» وقد كان معجباً به، وبعد كل هذه الجولة فى التفكير فإننا لم نقطع برأى بات فى تساؤل لا برويير.

٢ - قلما يلتذ المرء أن يرى نفسه مكلفاً معاونة إنسان في حاجة إليه . ولكن من الغريب أن الحظ السعيد إذا جعل هذا الإنسان في غنى عنه وعن مساعدته فانه قد يسر لرفع العبء عنه، ولكن سروره لا يكون تاماً، بل قد يمازجه شيء من الامتعاض كأنما ذلك الحظ السعيد الذي أغنى ذلك الإنسان عنه قد انتقص من قدره، لأن احتياج المحتاج إليه يشيع غروره وزهوه بالرغم من عبئه . وإشباع زهوه يدعو اطمئنانه إلى قدر نفسه وعظمتها، أو قل إن الإثرة في باطن نفسه كانت تفضل أن يزداد سعداً على سعد بأن ينال الحظ السعيد الذي ناله المحتاج إليه، ثم يظل ذلك المحتاج إليه محتاجاً إليه . وكذلك إذا نال صديق نعمة أو منزلة أو جاهاً فان المرء يبتهج بما نال صديقه ويسر له، ولكن سروره كثيراً ما يمازجه امتعاض خفى، فالسرور بنعمة الصديق لا ينفى وجود عكسه من حسد أو تنغيص أو ألم، لأنه لم يزد حظاً على حظ بدل أن ينال الحظ صديقه، وهذا من اجتماع الأضداد في النفس وقد تجتمع .

٣ - إن الذى يستطيع أن يصبر صبراً طويلاً قبل نيل ما يريد لا يئس كل اليأس إذا لم ينله . أما الذى يترقب نيله بشغف ولهفة لاصبر فيهما فإنه أكثر تعرضاً لليأس، ثم هو إذا نال ما يريد لا يرى ما ناله بعد آلام اللهفة كفاءً لما قاسى في سبيل توقع نيله وارتقابه من عنت الشغف واللهفة، فكأنه لم ينله كله أو بعضه .

وهذا إذا كان الشغف به لا يزال فى نفسه كله أو بعضه، أما إذا كان قد زال أكثره فإن مارسيل بروست صادق فى قوله: إنه إذا تحققت الرغائب بعد زوال الشغف بها قنعنا منها بأقل مما كنا نقنع من قبل؛ إذ الشغف لا يزال قاهراً حاداً .

٤ - الإنسان يزداد مع الزمن ألفة لمن صنع معهم جميلاً وأحسن إليهم، ولكنه يزداد نفوراً ممن أساء إليهم، وذلك لأن رؤية الطائفة الأولى تزيد حسن رأيه فى نفسه، أما الطائفة الثانية فإن رؤيتها تذكره إساءته إليهم فتقلل من حسن رأيه فى نفسه حتى ولو كان جانب من نفسه يباهى بقدرته على الإساءة فإن جانباً آخر من نفسه يبصره بعيوب نفسه ولو كان ذلك عن طريق الوعى الباطن الخفى .

٥ - الناس يذمون الإسراف فى كل الأمور إلا الإسراف فى شكر نعمتهم عليهم، فإنهم قلما يذمون الإسراف فى شكر نعمتهم - إلا إذا فطنوا إلى أنه يراد به المزيد من النعم التى لا يريدون أن يجودوا بها - ولكن الناس فى أكثر الأحوال يطلبون المزيد من شكر نعمتهم مهما بالغ الشاكر فى شكرها، ولا يرون شكره كفاءً لما أولوه من النعمة، بل يرون أنه دائماً مدين لهم بالشكر.

٦ - الحديث المحبوب لدى القلب أطيب من الحديث المقنع للعقل بحججه .
ومن أجل ذلك تُصغى النفس إلى ما تود أن تسمعه أكثر من إصغائها إلى ما يقنعها - بل هى تصنع أكثر من ذلك فتستنبط للحديث الذى تود أن تسمعه براهين وأدلة كى تقنع نفسها أنه أقنعها، وأنها لم تصغ إليه لأنه محبوب تود سماعه، بل أصغت إليه لأنه يدلى بالمنطق الحق والبرهان الصادق، وأحياناً لا تكلف نفسها مثونة ذلك وتكتفى بأنه حديث شائق محبوب تود سماعه.

٧ - الرجل يصعب عليه، لاسيما إذا كان على شىء من الكبر، أن يغتفر لآخر اطلاعه على سقطة أو زلة أو سيئة بدرت منه، وخاصة إن كان عند المطلع على زلته أسباب وجيهة تدعوه إلى مؤاخذته أو لومه، ولا يهدأ غضب صاحب السقطة أو الزلة أو السيئة إلا إذا ألزم الآخر مثلها وأظهره فى مظهر شبيه بها، فكأنه بذلك يمحو أو يخفى أو يهون من أمر زلته أو عيبه، ويزداد قدراً لدى نفسه، ولما كانت العيوب والسيئات شائعة بين الناس كثيراً ما يتعاونون لتهوين زلاتهم بإلزام غيرهم سيئات مثلها.

٨ - كثيراً ما تصدر من المرء أعمال عظيمة وإحساسات نبيلة فتنسب إلى حب الخير الغريزى فى النفس البشرية. والحقيقة أنها بسبب ما اكتسبه بالعادة والمراس والمحاكاة للخلق السائد المدوح لدى الناس، فإن هذه الأمور تكسب المرء قوة خلقية، أما غريزة الخير فإنها تضعف لولا العادة والقدرة، وهما يزيدانها تمكناً.

٩ - كثيراً ما يكون ضعف المرء وعجزه باعثن له على البغض والكره والمقت، إذ لو كان قادراً غير عاجز للجأ إلى وسائل أخرى. والرغبة فى الانتقام وطول التفكير فيه هما بسبب هذا الضعف؛ لأنه لم تتم له بعد أسباب القدرة عليه،

فضعف المرء يدعوه إلى كره الناس . ولكن كسله وحبه الراحة والدعة والاطمئنان والسكينة أمور قد تدعوه إلى التخلي عن كرهه وعن محاولة التشفى ، ومن أجل ذلك كان من الصعب أن يقهر المرء غضبه في أول الأمر إذا غضب على إنسان ، ولكن إذا تراخى به الزمن كان من الصعب أن يعانى شعور الغضب والبغض على الدوام ؛ لأنه يقلل من راحته وهناءته ، إلا إذا جعل للسخط والرضا ، تداولاً وتعاقباً على نفسه .

١٠ - من الصعب محاولة إغراء المرء باتباع رأيك فى الأمور الكبيرة قبل أن تتمكن من أن تعودته على اتباعه فى الأمور الصغيرة التافهة . فإن المرء يأنف أن يعمل حسب ما يوحى به غيره - حتى ولو كان صواباً - إلا إذا كان الموحى المغرى صاحب لباقة تمنع الموحى إليه من الشعور بالأنفة والغضاضة والهوان إذا اتبع رأيه ، وتتميم إباء نفسه أن ينقاد لرأى غيره ، فإذا لم يكن المغرى بالرأى الموحى به صاحب لباقة كهذه اللباقة دفع المرء الاستحياء أو الكبر أو هوى النفس إلى رفض ذلك الإغراء والتحكم ، ولكنه إذا تعود أن ينقاد فى الأمور الصغيرة التى لا يرى أنفة فى الموافقة عليها بسبب زهادتها وتفاهتها ، انزلق واسترسل به التعود فينقاد فى الأمور الكبيرة . وهذه حقيقة يعرفها الناجحون فى الحياة الذين يحملون الناس على قضاء ما يريدون ، وقد يحملون من هم أكبر عقلاً منهم ، ومن تظن أنهم لا ينقادون لأمثالهم ، وإنما يفعلون ذلك باتباع هذه الحقيقة النفسية السيكولوجية ، وكثيراً ما يكون الضعف سبب انقياد المرء لرأى غيره . ولكن الكسل وحب الراحة من أسباب هذا الانقياد ، وهى حقيقة يستغلها ويستثمرها ذوو الإلحاح لنيل مطالبهم ، وكأنهم ينتهزون فرصة استرخاء الكسل والدعة ومحبة الراحة ويعرفون صفاتها وأوقاتها فيهمجون فى حالاتها على من يريدون الإلحاح معه باللباقة كذلك التى وصفت .

١١ - قد يكون من الدهاء أن نعامل أعداءنا على أمل أن يكونوا يوماً أصدقاءنا ، وأن نعيش مع أصدقائنا على حذر من أن يصيروا يوماً أعداءنا ، ولكن هذا يجافى أصول المودة والعداوة . وقد يدعو إلى أخلاق غير فاضلة وإلى تكلف مالىس من الصدق والنبيل ، وإلى استخدام الكذب والرياء . وأفضل من ذلك ألا

يصاحب المرء إلا ذوى العقل والأمانة والشهامة الذين إذا صاروا أعداءه عادوا من غير أن يتعدوا حدود العقل والأمانة والشهامة - ولكن هل يستطيع دائماً أن يميز من لا يتعدون حدود العقل والأمانة والشهامة فى عداوتهم؟ فى بعض الأحيان يستطيع تمييزهم بأن يفحص معاملتهم لأعدائهم قبل أن يصادقهم. فإذا وجد أنهم يعاملون أعداءهم بالخيانة وقلة الشهامة والرعونة، استطاع أن يعرف أنهم لو صاحبوه ثم عادوه، عاملوه بمثل تلك المعاملة التى تدل على لؤم العداوة وخستها وغدرها وحماتها.

١٢- لو أننا لم نسرّ وتأنينا فلم نضحك إلا بعد زوال جميع منغصات حياتنا، وبعد كمال سعادتنا، لكان من المخوف أن نموت قبل أن نضحك. والحقيقة أن الضحك أو حتى تكلف الضحك، قد يقلل من متاعب الحياة، ولكن كثيراً من الناس يتشبثون بمنغصات حياتهم ومتاعبها، بالأبى يحوا لأنفسهم الضحك إلا بعد زوالها، فيكون تشبثهم بها بحرمان أنفسهم من الضحك باعثاً على بقاء متاعبهم وثقل عبثها.

١٣ - أحب الرغبات إلى الإنسان التى لا تتحقق؛ لأنها متى تحققت وفاز بها ألفها واعتمدها ووجد بعض الملل فى نفسه إليها سبيلاً فى بعض الأحيان فتقل قيمتها. وكثيراً ما نرى الرغبات التى تتحقق ويفوز بها الراغب تواتيه فى غير أوانها الذى يسعد بها فيه أو توافيه فى حالات من حالات نفسه. وفى ظروف من الحياة تقلل من المتعة بها، ولهذا الأسباب كلها تقل قيمة الرغبات إذا تحققت مهما كانت عزيزة محبوبة قبل الوصول إليها فلا تقنع الفائز بها، ولا ترتاح نفسه، ولا تهدأ. وهو كذلك لا ترتاح نفسه، ولا تهدأ إذا لم تتحقق الرغبات بسبب ألم اللهفة؛ فالإنسان قلما يرضى سواء تحققت رغباته أو لم تتحقق. وفى هذا عظة له وعبرة لو يعتبر.

١٤ - إنَّ ألم الحزن لفقد من نحب أقل ثقلاً على النفس من نكد العيش مع من نكره ومن منغصات الحياة مع من نبغض؛ لأنَّ ألم الحزن على الفقيد المحبوب يقلله مرور الأيام، ويكتسى شيئاً من الذكريات الجميلة التى تكسب

الحزن شيئاً من مباحج الجمال . أما العيش مع البغيض المكروه فإنه يزداد ثقلاً على النفس فتزداد به غما مادام دائماً لم يزل .

١٥ - المودة المستكملة الصادقة في كل بواطنها ومظاهرها، أندر وأقل حدوثاً من العشق الشديد . وفي المودة نأتمن الصديق على أسرارنا بمحض إرادتنا، أما في الحب فلا إرادة فيه، بل قد نذيع أسرارنا بالرغم منا . وقلما تزول الصداقة إلا لأسباب تدعو إلى نقصها كالغدر أو الإساءة التي لا تُقبل، أو الجفاء الذي يدل على الغلظة، أما الحب فقد يوجد كأشد ما يكون بالرغم من هذه الأسباب . فإذا زال فقد يزول من غير ماسبب، بل يفيق المحب إلى أنه قد صار لا يحب حبيبه وهو هو لم يتغير . وقد يولد الحب بغتة من غير إرادة أو تفكير . أما المودة فإنها في حاجة إلى العشرة والألفة والزمن كي تنضج ثمراتها . وقد يكون أشد الحب الحب المبالغت من أول نظرة . ورب نظرة إلى وجه جميل أو يد رشيقة قد تصنع بالقلب في طرفه عين، مالا تصنعه أعوام طوال زاخرة بالعطف والمودة وأداء المعروف .

نظرات لورد بيكون^(١)

- ١٢ -

من الغريب أن لورد بيكون من المفكرين الإنجليز الذين أولع أهل الخيال والأهواء بهم، فتارةً يزعمون - كما قرأت في مقال - أنه إدوارد السادس مع أن بين ميلاديهما فرق يقرب من الجليل، ومات إدوارد السادس بعد ضعف ومرض وحضر موته الأطباء. وكان فرنسيس بيكون وهو غلام يصطحبه أبوه السير نيكولاس بيكون إلى قصر الملكة اليصابات، وكان من أعوانها، وكانت الملكة تداعبه فتسميه كاتبها أو وزيرها الصغير، وأسرته معروفة، والبيت الذى ولد فيه غير مجهول، وكل حوادث حياته حقائق معلومة، فليس فى حياته أى غموض. وبعض أهل الخيال والأهواء يدعون أنه كتب قصص شكسبير الشاعر العالمى، ولكن شكسبير كان أكثرًا من العمل، وبيكون كان أكثرًا من العمل، ويستحيل أن يقوم إنسان واحد بالعملين معًا مهما كانت قدرته، وبالرغم من أن بيكون كان أديبًا فإنه كان يعد البحث العلمى العلمى أهم من الأدب، وقد مات بسبب أنه خرج فى يوم بارد كثير الثلج ليجرب تجربة علمية عملية نافعة وهى حفظ اللحوم بالثلج ومنعها من التعفن، وقد كان ينعى على القدماء تفضيل الفلسفة النظرية والأدبية على البحث العلمى العلمى. وله مؤلفات كثيرة: فله كتاب الرسائل وكتاب حكمة القدماء فى أساطيرهم، وكتاب أقوال مشاهير الرجال، وكتاب أطلنطيس الجديدة، وكتاب تاريخ حياة هنرى السابع، وكتاب (نوفام أرجانوم) أى الأداة الجديدة فى العلم والتعليم، وكتاب تقدم العرفان؛ وعلاوة على ذلك فقد كان له عمله فى البرلمان وفى المحاكم فى سماع القضايا والحكم فيها وكتابة

(١) المقتطف: فبراير سنة ١٩٤٩.

أسباب حكمه بعد التفكير فيها، وكان مستشاراً لبعض وزراء الملك جيمس الأول يكتب لهم التقارير، ولم يشتهر بشيء من الشعر، مع أن بعض الأشراف لم يعدوا كتابة الشعر فى عهده حطة لهم، فكيف كان يستطيع مع كل هذه الأعمال أن يؤلف قصص شكسبير العديدة؟ على أن فى قصص شكسبير من الأغاليط التاريخية مالا تقلل من عظمة عبقريته كشاعر، ولكنها هى والأغلاط الجغرافية ما كان يقع فيها مؤرخ مثل بيكون. وشكسبير فى بعض قصصه يشكو حظ الممثل أو الأديب أو نكاية زملائه، وهذا لا ينطبق على بيكون، كما أن شكسبير كان فى بعض قصصه يداعب أو يسخر من قول بعض الشعراء. وهذا أيضاً يستبعد من بيكون الذى يزعم أهل الأهواء أنه قد ترفع عن طبقة الشعراء وإن كان أكبرهم فنسب قصصه إلى غيره. أما بحوثه العلمية التى كان يقضى بها وقت فراغه وآراؤه فيها فليست كلها مقبولة لدى علماء هذا العصر. ولا غرابة فى ذلك، ولم يكن مبتكراً فكرة تقديم الخبرة والتجربة فى العلم والوصول من الشواهد الخاصة إلى القاعدة العامة، ولكنه أذاعها وجعل هذه الفكرة مبدأ عاما واشترطها فى البحث العلمى العملى فى كتابه عن العلم والتعليم، ولاشك أن عقله كان أكبر من قلبه، ولا داعى للخوض فيما اتهم به من العيوب إلا أنه من الضرورى أن نقول إنه حوكم لقبوله الرشوة فى القضاء واعترف بذلك قائلاً: إن أحكامه بالرغم من ذلك كانت وفق العدل، وقد ندم على ما فعل، وقد عومل بالرفق فى محاكمته ثم مالبت أن أطلق سراحه وأسقطت عنه الغرامة التى فرضت عليه. **وهذه النظرات من رسائله تدل على كبر عقله وخبرته بالنفوس البشرية:**

١ - الحق كضوء النهار لايزين قناع زخارف الحياة المموهة وأباطيلها وبهاارجها وآمال الناس فيها وأعمالهم ونزعات نفوسهم إذا كان الحق خالصاً من شائبة الخداع للنفس، كما يزينها إذا كان مشوباً بشيء من الخداع للنفس بالباطل خداعاً قد يكون غير مُدرك. وضوء هذا الحق، الحق المشوب بخداع النفس، قد يكون أشبه الأشياء بضوء الشموع فى المراقص المُقنَّعة ليلاً يخفى نقائص ألوانها وبهاارجها وحقيقتها ويكسبها شيئاً من الجمال المصطنع ويزين لباسها المستعار ويخفى بعض ما بها من ادعاء، ومن أجل ذلك كثيراً ما يخالط الحق حتى من

غير تعمد للخلط شيء من الباطل كى يقلل من نور الحق فلا ينم على أكاذيب الحياة وهي كثيرة، وهل من شك فى أنك إذا سلبت من إنسان كل ما فى عقله من آراء لا أساس لها من الحق، ونزعت عنه كل آماله الباطلة التى تملقه وتزين له أمره وعيشه وتمحه على استنفاه والاطمئنان إليه وحرمته من مقاييس عقلية باطلة ومن أحكام وموازين يتشبث بها ومن أحلام فى الحياة جميلة لا حقيقة لها ولكنها تريحه وتسعفه ويتعلل ويتسلى بها - إذا نزع من عقله ونفسه كل ذلك لم يبق له غير عقل ضامر هزيل ونفس ضئيلة حائرة خائبة، فالباطل قد يمازج الحق كما يمازج المعدن الخسيس الأشد صلابة الذهب الإبريز كى يزيده صلابة ويجعله أصلح، كتنقود فى المعاملات، وإن كان ينقص من قيمة عنصر الخليط.

٢ - جلال الموت وما يحاط به أشد رهبة من الموت، وبعض المفكرين يخيف الناس من الموت بأن يقيس ما فى الموت وهو تلف الجسم كله بما فى تهشم أصبع وهو جزء صغير من الجسم. وهو قياس غير صحيح؛ لأن الأعضاء الحيوية أقل تأثراً بالألم، والألم فيها أسرع مفعولاً. فكثيراً ما يموت الناس من غير إحساس كبير بالألم، وليس فى النفس إحساس قوى يعجز عن التغلب على الخوف من الموت، فالغیظ وطلب الثأر والحب وطلب المجد والإحساس بدافع الدفاع عن الشرف والحزن والخوف والشجاعة وحتى الإشفاق والرحمة وهى أرق الطباع - كلها أمور تستطيع التغلب على الخوف من الموت، وحتى الملل من الأمر المعتاد والمكرر قد يتغلب على الخوف من الموت؛ فالموت إذاً أقل شدة وبأساً وهولاً مما يصوره بعض القائلين.

٣ - من الحماقة والغفلة أن يريد المرء بغيظه وحنقه وكرهه وقسوته أن يحقق إرادة الله، فيؤدى ذلك إلى الإجرام وإلى مثل مذابح سان برثولوميو. لقد كان من الكفر والإجرام قول إبليس إنى أريد أن أصعد إلى عرش الله. أليس مما هو أشد كفرًا وإجرامًا أن يريد المرء إنزال الله من على عرشه كى يشركه فى قسوة الإنسان إذ يتوهم أنه يخدم الله بقسوة مثل قسوة قرصان البحر.

٤ - إن من أعظم العظمة التى هى فى منزلة عظمة المعجزات أن يحكم المرء نفسه كل الحكم فيما ينوبه من حوادث الدهر. ويعجبني قول سنكا الفيلسوف

الرومانى فى هذا الموضوع (أسمى ما يكون عجز المربوب إذا اقتدى باطمئنان الرب).

٥ - إن الحزن الذى تزينه أسباب الأمل والاطمئنان والإيمان كالثوب القاتم اللون المطرز بالخيوط الزاهية البهجة. فهو أملاً للعين وأشرح للصدر من السعادة التى تحيط بها المكاره والمخاوف المقلقة والتى تكون كالثوب الأبيض المطرز بالسواد.

٦ - مهما كان الرياء لازماً فهو مظهر من مظاهر العجز فى الأمر الذى لجأ إليه المرئى؛ إذ لولا العجز فيه ما لجأ إلى الرياء.

٧ - من الناس من يتقنون الصراحة ويتخذونها خطة حتى يعرفوا بها، فإذا لجئوا إلى وسائل المكر والنفاق لم يصدق أحد أنهم من أهل المكر لما عهد من صراحتهم، فكأنهم بهذه الوسيلة يختفون فى مكرهم من أبصار الناس. وهذا يذكرنى قول أبى تمام الطائى:

سكن الكيدُ فيهمُ إن من أعـ ظم إربٍ ألا تُسمى أربيا

٨ - الرجل الذى يقول كل ما يعرف كثيراً ما يسوقه طبع الكلام وعادته حتى يقول ما لا يعرف، ويدعى أنه شاهد ما لم يشاهد، وحضر ما لم يحضر. والناس يأتمنون الرجل الكثير الصمت على أسرارهم، والثرائر مكشوف العورة كالرجل العريان. وكما أن الثياب تزيد المرء وقاراً فالكتمان يزيده هيبه ووقاراً، وليس الكتمان باللسان وحده بل أبلغ منه الكتمان بضبط المرء تقاسيم وجهه وحكم تقاطيعها حتى لاتنم على ما يكتتم؛ لأن الناس يصدقون ماتنم عنه ملامح الوجه أكثر من تصديقهم كلامه وإن نطقه وزينه. ومن مزايا الكتمان أنه يدعو إلى استنامة أعدائه وإلى مباغته مناضليه وأنه يدع لنفسه طريقاً للتراجع إذا اضطره الأمر؛ إذ لو أعلن أمره اضطر إلى المضى فيه أو إلى إظهار العجز والخيبة. وهو بكتمانه وسكوته وإصغائه بدل الكلام، يستطلع ما يريد أن يعرف من آراء الناس وأغراضهم وخططهم، لكن المبالغة فى الصمت والكتمان قد تغرى الناس بأن يظنوا به الجبن والوجل، ثم إن صمت مثل هذا المبالغ قد يحير من يريد أن

يعاونه وأن يشركه في أمره فيفقد ثقة بعض الناس، ولعلَّ هذا من أسباب شك الناس فيمن لا يعاشرهم ولا يحادثهم.

٩ - يشترك الآباء والمعلمون والحكام والأتباع وأمثال هؤلاء في تنمية روح المنافسة، فينمو التحاسد والتباغض في نفوس الأطفال الصغار من حيث لا يشعر القائمون بأمرهم الذين تسرهم عاقبة المنافسة العاجلة الفانية ولا يفتنون إلى ما يمكنونه في النفوس البشرية من عواقب تبقى مدى الأجيال وضررها في الحياة كثير، وهو ضرر غير مقصور على عهد الطفولة. وإنما يلجئون إلى هذه الخطة لأنها في نظرهم أسهل خطة للحصول على ما يريدون أن يكون عليه الأطفال.

١٠- في النفوس صفة لؤم ذائعة، وهي أن كل من لم يستطع إصلاح حاله يحاول إفساد حال غيره؛ ومن أجل ذلك كان ذوو العاهات والخصيان والشيوخ وأمثال هؤلاء من أشد الناس حسداً إلا إذ صادف نقصهم نفساً كبيرة تجعل نقصها زائداً في شرفها وشفيعاً لمدحها، إذا يقال إن صاحبها أتى بالأمر العظيم بالرغم من عاهته أو نقصه. والحسد داء الأمم والدول ومضعفها، ولكنه قد يكبح جماح طغيان الحكام والمقربين لديهم إذا خشوا عاقبته، والحسد كالوباء فمن خشى الوباء كثيراً وذعر منه أصابته غائلته من الرعب. وكذلك من يذعره حسد الحاسد فيظهر الاستخذاء والضعف والذعر فينتهز الحاسد فرصة ذعره ويصيبه بسوء، وإذا فشا الحسد في أمة أصاب السليم الصفات الكريمة الأخلاق الفاضل النفس، كما يصاب الوباء السليم الجسم فيمرضه. وفي أمثال هذه البيئة التي فشا فيها الحسد يصبح الفضل نقصاً، والرأى السديد خرقاً، والعمل الصادق عملاً كاذباً في دعوى ذوى الحسد الذين يرون في انقلاب الأمور وحقائقها إخفاءً لحسدكم ونقصهم، وهم مثل الزارع الذى يزرع الشوك والحسك فى الظلام بين الحنطة وغيرها من النبات حتى ينتشر الشوك والحسك ويمنع القمح وغيره من النمو.

١١ - قال ديموستينيس الخطيب الأثينى: أول صفات الخطابة وثانيها وثالثها الجرأة فى الحركة والفعل. وكذلك ألزم صفات النجاح فى الحياة المدنية وأولها وثانيها وثالثها الجرأة، مع أن الجرأة تدل على أن تفكير صاحبها محدود؛ لأنه إذا

تشعب منه الفكر تردّد في شعابه وألهاه عن الجرأة وشغله عنها، فالجرأة أخط من غيرها من الصفات الفاضلة، ومع ذلك فهي من صفات النجاح أولها وثانيها وثالثها.

١٢ - قد يكون المرء صالحاً جداً حتى أنه من شدة صلاحه لا يصلح لمباشرة أى عمل من أعمال الدنيا بنجاح. والحقيقة هي أن النجاح في الحياة قد يتطلب - إلاً إذا جاء عفواً - شيئاً ولو قليلاً من المكر والاحتيايل يخالط فضله وصلاحه، وقد يخفيه ذلك الفضل ولكنه موجود يخفى حتى على بعض من يتفككه ساخرأ بغباوة أغنياء الحرب إما حسداً لهم، وإما دعابة يخالطها بعض الحسد ولو القليل منه، وإما جهلاً بأن الغباوة لاتجافى المكر والاحتيايل. وأن المكر من مظاهر العقل وهو من صفات النجاح، وكثيراً ما يلجأ إليه الغبي كى يجعله عوضاً عما حرّمه من الذكاء والفكر.

١٣ - قد ينسى بعض الناس الذين طبعهم الإسراف (وبعضهم يسرف من غير شعور فى أمور لاحاجة إليها وإن توهم غير ذلك) أن الإسراف فى أمر من الأمور يقتضى الاقتصاد أو التقدير فى أمور أخرى - وهذا يذكرنى قول معاوية فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ: - ما رأيت إسرافاً قطّ إلاً وإلى جنبه حق مُضِيعٌ.

١٤ - سوء الظن يكثر فى ظلام العقل كالخفافيش تكثر فى الظلام، وإذا عظم سوء الظن عطّل العمل وفصم الصلات وعكر العقل ودعا إلى الظلم والغيرة والتردد والحزن وإلى فقد الأصدقاء. وإذا كان سبب الظن جباناً هلوعاً يتملكه الذعر والرعب إذا فكر فيما يسىء به الظن فإن رعبه قد يدفعه إلى عدم التثبث ظناً أنه إذا تعجّل بادر ما يخشاه قبل وقوعه. واتقاء ما يساء به الظن كأنه أمر حقيقى لاخطر منه، بل هو لازم إذا لم ينزله المرء فى نفسه منزلة اليقين ويتعجّل بالحقق لمعاقبة من يسىء به الظن، وكذلك الذى يساء به الظن وهو برىء أو يخشى أن يساء به الظن ينبغى ألا يظهر فى ملامح وجهه وحركات جسمه أنه يخشى أن يساء به الظن وإلاً أسىء به الظن ريبة وإن كان بريئاً كما قال الطغرائى الشاعر (إن الهَيُوبَ مُرِيبٌ) فى بيته الآتى:

تخفى بسالتهُ مطارح هَمَّهُ ومَرامُهُ إن الهَيُوبَ مُريب

١٥- إخفاء سوء ظنك بصديقك عنه يزيد من سوء ظنك به، وقد تمحوه الصراحة وتبطل الوسواس التي تنمو بسبب سوء ظنك به، ولكن بعض الناس يكره أن تصارحه ويحقد عليك من أجلها، حتى ولو كانت صراحة بلباقة ولطف فلا يخلص لك بعد مصارحتك أبداً - وهذا يذكرني قول البحرى:

أدعُ الصاحب لا أعذله لا يُسمَى بِعَقُوقِ فَيُعَقَّ

١٦- ينبغى لمن وهبه الله قدرة على الفكاهة والسخر، أن يتذكر دائماً أن هذه القدرة تبعث الشك وسوء الظن به وبمقاصده حتى يحمل الناس كل ما يقول أو يعمل على محمل السخر بهم والاحتقار لهم وإن لم يكن يريد ذلك. وقد يذكر المرء قولاً بريئاً لاسخر فيه فيحمل الناس معناه على ما بدر منه فى أوقات أخرى من السخر (وهذا يذكرني قول لورد تشستر فيلد: ينبغى لصاحب الفكاهة والسخر أن يتقلدها مغمدة كما يتقلد السيف، لا مُصلياً لها، وأن يتخذها عدة للدفاع إذا لزم لا للاعتداء) وأبغض الفكاهة فى نظر لورد بيكون ما تناول بالتناذر والسخر الأمور الخليفة بالخشوع والإجلال.

١٧ - كل من كان فى نفسه شىء يدعو إلى احتقاره مُزوِّدٌ بدافع نفسى يعمل للنجاة من ذلك الاحتقار بالحيلة أو المكر أو الشجاعة أو العمل العظيم الذى يدعو إلى الإعجاب أو بالظهور بين الناس إما بالفضل وإما بالشركى يخيفهم بشره وينال الهيبة والخوف منهم إذا لم يستطع نيل الإعجاب بفضله. فكم من عاهة أو نقيصة فى حياة المرء حثت على العظمة أو على الإجمام. وإذا كان صاحب النقيصة عاجزاً كان شديد الحسد.

١٨ - المظاهر المألوفة الصغيرة من مظاهر الفضل أجلب لرضا الناس ومدحهم من مظاهر الفضل العويصة العظيمة النادرة؛ لأن الحياة اليومية أحوج إلى الأولى كما أنها أحوج إلى النقود القليلة القيمة فى التعامل اليومي - ولأنها أقرب إلى فهم جمهور الناس وأقل هدفاً للحسد.

١٩ - أكثر الناس تغاضباً الأطفال والشيوخ والنساء والمرضى والمدللون الذين هم أشبه بهؤلاء. ومن أجل ذلك ينبغي أن يستحي العاقل من أن ينزل نفسه منزلتهم بالتغاضب ظناً أن الغضب من مظاهر العظمة، وهو ليس من مظاهر العظمة بل من مظاهر الجهل والمرض والضعف والعجز عن حكم النفس، فهو اعتراف بالنقص، لأن كل هذه المسببات من باب النقص وأشكاله.

٢٠ - بعض الناس عقلهم أعظم مما يُخيّل للناس فيهم من العقل. وبعض الناس يخال فيهم من العقل أعظم من نصيبيهم منه. فملاحم الوجه قد لاتدل دلالة قاطعة على مقدار المرء من الفهم والتعقل، وقد يستر المرء نقص عقله بالوقار والحشمة، وبعض الناس له مهارة في إلباس الأفكار التافهة لباس الحكمة، وبعض الناس يوهمون غيرهم بالصمت أنهم يعرفون أكثر مما يريدون أن يقولوا، وبعضهم يوهم ذلك بإشارة وجهه أو يده أو طرف من بدنه أو بالابتسام الماكر أو بالظهور بمظهر التأمل المفكر وهو لا يتأمل ولا يفكر. وهؤلاء وأمثالهم على قلة عقلهم يشتهرون بالفضل - (وهذا يذكرني قول شيرير الناقد الفرنسي: إن بعض الناس كالمنازل الضيقة التي تكاد تكون لا عرض لها وطولها كله على الشارع الرئيسي البارز فيحسب الرائي أنها منازل كبيرة وهي صغيرة جدا).

٢١ - بعض الناس لإخفاء نقص عقولهم يتخذون وسائل أشبه بحيل التاجر المفلس الذي يريد أن يقنع الناس أنه غنى كى يجد من يقرضه مالا ليتلافى أمر إفلاسه وكى يعود إلى الكسب وإلى الارتزاق. وهؤلاء إذا عن موضوع أظهروا عدم الاحتفال له وتهوين أمره أو السخر به بدل فحص فكرته والإدلاء برأى فيها.

٢٢ - قد يكون الرجل ذا إثرة محبا لنفسه، ومع ذلك يكون فى حاجة شديدة إلى صديق، فليست الحاجة إلى المصادقة والمودة من سلامة الطوية وطيب القلب، وإنما هى ضرورة كضرورة من يأخذ الدواء كى يجرى به المراءة فى جسمه ويُدبرها. وأمثال هذا إذا افتقدوا المجلس المصاحب كانوا كمن يأكلون قلوبهم - ولعل هذا هو السبب فى غيظ ذوى الأثرة ممن ينقطع عن مجالسة الناس أو لعل سبب من أسبابه - وبعض الناس لاتتم متعتهم بالسرور إلا بإعلانه لصديق أو

جليس، ولايسهل تحملهم للشقاء إلا بالشكوى لعشير أو جليس أو صديق ومكاشفته. وهذا يذكرنى قول الشاعر العربى:

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة يواسيك أو ينسيك أو يتوجع

٢٣ - تزداد آراء المرء صحة ووضوحاً بالمحادثة؛ لأنه قد يتكلف بحثها ووضع حدّ لمعناها وأسبابها، فيزداد المرء دقة وحكمة بالمشافهة أكثر مما يزداد بالتفكير خالياً بنفسه منفرداً. فهو بالمحادثة يشحذ ذهنه كما يشحذ السلاح على الحجر حتى ولو كان محدثه لا يستطيع أن يجيد مبادلة الرأى ونقده، ويستثنى من ذلك الحديث الذى لا يراد به هذا الأمر بل تراد به الضجة وتعطيل الفكر والمهاترة.

٢٤ - اختلال الأمن أكثر ما يكون بسبب الحاجة وال فقر ولا يداوى ولا يكبح إلا بمداواتهما. وقد قال تاسيتوس المؤرخ الرومانى فى وصف أمثال هذه البيئة المختلة: بعض الناس لهم جرأة على عمل الشر، وبعض من ليست لهم جرأة على عمله يرغبون فى أن يعمل غيرهم الشرور أكثر من هؤلاء وأولئك الذين يسمحون بعمل الشر ولا يعينون ولا يدلون على من يعمله ولا يحاولون منعهم. فإن رأيت أمة اجتمعت فيها هذه الطوائف الثلاثة واستفحل أمرها فأنذرها بالتدهور فى نظامها وحياتها التى تحياها، ولاسيما إذا انتهز الوجهاء والأعيان والأدباء والمفكرون فرصة امتعاض الجمهور من سوء حالهم كى يثيروهم بوسائل ظاهرة أو خفية لمآرب خاصة بهم. وإذا كثر فى مثل هذه الأمة الذين يسرفون فى الترف أكثر مما ينتجون وازداد فيها عدد المتعلمين الذين يعتمدون على مناصب الدولة ولا عماد لهم غيرها فهى أمة معرضة دائماً للتدهور مهما غرَّت ظواهرها.

٢٥ - مظاهر الحزن قد تكون مثل صمامات الأمان، فالذى يحاول منعها إذا اشتد الحزن قد يكون حاله مثل حال الذى يجعل جروحته تدمى فى داخل جسمه بدل أن تدمى على ظاهره وعلى جلده فيعالجها، وهى إذا دميت فى داخل جسمه سببت التقيح والتسمم فى بدنه، وكذلك من يقهر أحاسيسه الشديدة كل القهر ولاينفس عنها بعض التنفيس بالعمل أو القول أو الكتابة وما شابه ذلك يكون كأنه تسمم بها.

٢٦ - إذا لم تجد النفس منفذاً إلى النجاح والتبريز في الأمور العظيمة فلا تنتعش إلاً بالنجاح والتبريز في الأمور الصغيرة، وقلما تنتعش وتطمئن إلى السكينة التامة الخالية من أى مظهر من مظاهر النجاح، فإنها حينئذ تنطوى على نفسها ويصيبها الملل والحزن إذا لم تجد ماتلهمى به مما يؤدي إلى النجاح والتبريز فى أى أمر من الأمور صغيرها وكبيرها.

٢٧ - أشد الناس أثرة وأناية لا يتورعون من إحراق مدينة كى يقلوا بيضة، أى لا يتورعون من تسبب أشد الضرر من أجل منفعة تافهة، ومع ذلك لا يغتر الناس كما يغترون بذوى الأثرة والأناية، لأن مطالب أثرتهم والرغبة فى الفوز بها قد تدعوهم إلى ملاطفة الناس واسترضائهم، فيخال ذلك من سلامة طويتهم وطيب أنفسهم فيأنس إليهم الناس ويثقون بهم، وبهذا الائتناس بهم وبتلك الثقة ينالون ما تتطلبه أثرتهم إلاً إذا كان صاحب الأثرة أحقق لا يعرف كيف يستدنى مآربها بملاطفة الناس وإظهار غير ما يبطن.

٢٨ - خطرات النفوس الخفية تكون حسب ميول الناس ونزعاتهم، أما آراؤهم فحسب ما تعلموا، ولكن أعمال الناس حسب العادات التى تعودوها؛ ومن أجل ذلك لا يصح أن يخدع المرء بالناس وأن يخلط بين هذه الأمور الثلاثة كما لا يصح أن يعتمد على طبع واحد من طباع نفس إنسان يعرفه؛ ففي النفوس طباع متناقضة، ولا يصح أن يعتمد كل الاعتماد على آرائه وأقواله وأحاديثه إلاً إذا صدقتها ووافقتها عاداته وإلاً كان عمله ضد رأيه فى بعض الأحيان. فكثيراً ما تسمع الرجل يفصح عن رأى أو عقيدة ويعطى الموائيق على أن يعمل وفقها ثم لا يفعل، بل يفعل ما تقتضيه عاداته، فكأنما الإنسان آلة مسيرة يديرها لولب العادة كما تدار الآلة فى المصنع.

٢٩ - للإنسان مزايا ظاهرة تجلب المدح ولا ينال صاحبها غير المدح وقد يكون ممدوحاً خائباً فكأنه مدحٌ عقيم، وللإنسان مزايا أقل ظهوراً من نالها جلبت له السعادة وأعانه الحظ ومثل هذا الإنسان الذى نالها كأنما محركات عقله ونفسه متفقة ومحركات الحظوظ كما تتفق عجلات الساعة فى سيرها أو عجلات الآلة. ومثل هذا الرجل قلما يخطئه الناس أو يذمونه أو يسبون له الخيبة، ومثل هذا

لا يشترط فيه تمام الفهم وكمال الفضل ، بل قد يكون نقصه فيهما معيناً له على النجاح ، وبالعكس ذلك تجد أناساً لا يستطيعون تجنب مؤاخذه الناس ولومهم وانتقادهم مهما أجادوا وأحسنوا في القول والعمل .

٣٠ - المتملق الساذج يمدح كل إنسان بكلام يعده لكل من يريد مدحه وهو على وتيرة واحدة والمتملق الماهر يمدح كل إنسان بما يود ذلك الإنسان أن يمدح به وبما يمدح به نفسه . والشريير هو الذى يمدح إنساناً بما يضره ويؤذيه . وإذا مدحت من كان فى مثل فضلك أو جبت لنفسك المدح ، وإذا لم تمدح من هو أكثر منك فضلاً أنكر الناس فضلك بالقياس .

٣١ - بعض من يود معرفة أسرار الناس يبادرهم بالحديث بالأمر الذى يريد على غفلة منهم واستئناس كمن ينادى إنساناً أخفى وغير اسمه فيناديه باسمه على حين غفلة منه أو يعرض له بما يريد معرفته ويتأمل وجهه خلسة . وقد يصلح رأى هذا الباحث إلا إذا كان جليسه هيوباً فيصدق فيه قول الطغرائى (إنَّ الهيوب مريب) .

٣٢ - ينبغى للقاضى أن يذكر دائماً أن الشرائع والقوانين لم تنشأ كي تكون أحبولة صيد وفخاخاً وشباكاً يصاد بها الناس كيفما كانوا وبأية طريقة .

نظرات جوناثان سويفت^(١)

- ١٢ -

كان سويفت إنجليزيا ولد في أرنلدة وعاش بها في صباه ثم عاد إليها في أواخر أيامه ومات بها. وقد كان فقيراً فأكسبه الفقر غيظاً وشعوراً بالنقص كان يخفيه بالكبرياء عندما نبغ وعاشر العظماء والوزراء. وقد عاش مدة في إنجلترا أشبه بكتاب للسير وليام تمبل السياسي الإنجليزى. وقد استشهد ثاكرى في رسالته عنه برسائل سويفت التى تذلل فيها للسير وليام وأظهر أن ضرورة هذا التذلل كانت تحز في نفسه وقلبه وتزيد من شعوره بالنقص. ولكن ما كولى في رسالته عن السير وليام تمبل وصف كيف أن سويفت قد استفاد علماً من مكتبة متبوعه كما استفاد خبرة عملية من معاشرته رجلاً تقلب في مناصب مختلفة واكتسب خبرة بالحياة والناس. وقارن ماكولى بين الدكتور صمويل جونسون الأديب الإنجليزى والكاتب الشهير وبين سويفت فقال: إن آراء الأول مكتسبة من الكتب، أما آراء سويفت فهى مؤسسة على الخبرة بالحياة. وقد خدم سويفت وزراء حزب المحافظين أولاً بقلمه، وكان يأمل أن ينصب أسقفاً في الكنيسة ولكن الملكة رفضت ذلك؛ لأنه فى بعض كتبه يسخر برجال الدين وطوائف الكنيسة وينقد حزازاتهم واختلافهم فى أمور تافهة. وأشهر مؤلفات سويفت كتاب أسفار جاليفار يطالعه الصغار لغرابة قصته والكبار لما فيه من نقد لحياة الناس. وقد خولط فى عقله فى أواخر أيامه، وقلما سلم منه صديق لحدة طبعه. وبالرغم من تلك الحدة أحبته امرأتان: وهما التى رمز للأولى باسم ستيل، وللثانية باسم فانيسا. وقد قال ثاكرى: إن انهيار عقله فى آخر حياته كان مثل انهيار دولة

(١) المقتطف: مارس سنة ١٩٤٩.

كبيرة، ويقول سير والترسكوت: إن فانيسا ماتت غما بسبب زواجه سرا من ستيللا، ولو أنه من المعروف أن فانيسا ماتت من السل، وقال ناقد: إن سخر فولتير كان مثل وخز سلاح المبارز؛ أما وخز سخر سويفت فكان أشبه بوقع فأس القاتل. وقد اتخذ من سخر عبقريته وشدته في القول وسلاطة لسانه سلاحاً في السياسة لم يسبق له مثيل، فجعل المقالة السياسية مقالة أدبية مرهوبة؛ لأنه أكسبها رائع الأسلوب، كما أكسبها الخيال والأدب والفكر والسخر والشدّة. ولكن شدة سخره كما تظهر في المقالات السياسية كمقالات دربير التي يقترح فيها على سبيل السخر بخصوصه من الوزراء طهى أطفال الأيرلنديين وأكلهم ويقتنّ في وصف طهيهم. كذلك تظهر شدة سخره في وصف ياهو المخلوق القذر في كتاب أسفار جاليفار وقد رمز به إلى الإنسان وفي مواضع أخرى كثيرة. وقد قارن فولتير بين رابليه الساخر الفرنسي وبين سويفت فقال: إن كليهما ذو بصيرة وفطنة، ولكن رابليه كان يحب الحياة والناس، أما سويفت فكان يكره الحياة ويحتقر الناس.

وحب رابليه للحياة سواء أكان حبا للذات الجسم أم كان حبا للذات الفكر، أمر مشهور تفيض به كتبه. وكان يحارب به الرهينة في المسيحية ونظرها إلى الحياة والفكر. ويمتاز سويفت بأنك لا تجد حرفاً أو كلمة يصح حذفها في قوله. أما رابليه فقد كان أسلوبه غزير المترادفات وأشباهاها فكانه في غزارته السيل المتدفق أو النمو النباتي الغزير. وكما أن كليهما قد يعوق السير فكذلك قد يعوق إتمام قراءة رابيله ما به من غزارة الكلام وكثرة الإشارات إلى أمور غامضة كانت معروفة في ذلك العهد البعيد. إلا أن قراءة كتبه تحبب الحياة وتدعو إلى الأمل وإلى الرغبة فيها. أما كتب سويفت فقد تدعو إلى احتقار البشرية واليأس من الناس.

ولكن هذا لا يقلل من رصانة تفكيره كما يتضح في النظرات الآتية التي نوردتها مع التعقيب عليها.

١ - قد يكثر الناس من الأعذار والأسباب حتى ينتحلوا الزائفة منها فيضيفونها إلى الوجيهة؛ ظنا منهم أن كثرتها تزيد الراجحة الوجيهة رجاحة ووجاهة. وهم قلما يفطنون إلى أن زيف الزائفة ينتقص من رجاحة الراجحة، ويدعو إلى الشك

فيها، وهذا أمر شائع يضيع الناس به حججهم ويطلقون حقهم، وإن كانوا على حق، وكذلك الضعيفة من الحجج تضعف ما أضيفت إليه من الحجج القوية، ويحسبون أن كثرتها تقنع المفكر فيها، ولكنه إذا فطن إلى ضعف الضعيفة ربما خالجه الشك في غيرها. وقد يحسب الناس قوة الأخيرة من بلاغة صاحبها أو مكره واحتياله، فإذا وثق السامع من بطلان بعض الأسباب أو ضعفها أبى الاقتناع كل الاقتناع بالسليمة، وتحرز من قبولها كل التحرز. وهذا مثل أن يتضح للسامع كذب بعض القول، فيشك فيه كله أو يرفضه أو يحكم ببطلان الصدق لجناية الكذب الذي أضيف إليه.

٢ - مهما عظمت المنافع التي استفادها المرء منك فإنه قد يحقد عليك إذا كانت له شهوة ظلم أو حقد أو بغض لإنسان ولم تُعنه على ظلم ذلك الإنسان أو على إيذائه أو انتقاصه ولم تساعده على التشقى منه، فإنه يعدك ممالئاً له وإن لم تكن ممالئاً، ويراك خاذلاً لنفسه كأنك خذلته في الخير والعدل. فإن الشهوات لا تتصف ولا تتذكر خيراً استفادها منك صاحبها ولا تأبه لما يفرضه عليك العدل من الامتناع عن ظلم الناس وإيذائهم. فكأن ما أسديت إليه كان نفعاً زائفاً وأمرأً مدلساً - ويدهش الناس لو فطنوا إلى حدِّ ينقادون إلى مثل هذا الإغراء بالشر والإلحاح في الحث عليه، وهم ينقادون إماً خوفاً أو طمعاً أو كسلاً أو استهواءً أو شهوةً أو جهلاً أو ماشابه ذلك. وبعضهم يحسب الانقياد إلى الشر ضرورة لامناص منها مع هذا الإلحاح وإن كرهها أو ادعى لدى نفسه أنه يكرهها أو كان يهاب عاقبتها، وربما ينقاد إليها وهو لا يسوِّغها فتنع نفسه بالباطل، إنه إنما انقاد إلى ضرورة من ضرورات الحياة التي لامناص منها، وربما غالط نفسه وعدَّ انقياده إلى الإلحاح على عمل الشر والأذى من ضرورات الحياة التي لا مخرج منها ولا مناص كي يطلق لنفسه العنان لإشباع نهمتها الغريزية في عمل الشر ولتسترسل فيما هو حبيب إليها منه. والإنسان قلما يتجنى أو يعمل الشر بإلحاح مغر أو بغير إغراء وإلحاح إلا وهو يعد لنفسه الأعذار كي يستريح إماً من تأنيب الناس وإما من وخز الضمير.

٣ - أكثر الناس عندهم من الإيمان والدين القدر الذي يغيرهم بكره الناس لمخالفتهم إياهم في أمر من الأمور، وليس عندهم القدر الأعظم من الإيمان

الذى يغريهم بحب الناس - فترى الناس يضطهد بعضهم بعضاً، وقد يكون هذا الاضطهاد خشية عدوى آرائهم وأعمالهم، أو قد يدعون أنهم يضطهدونهم لأنهم يحبون لهم الخير ويخشون عليهم الشر أو الأذى. وهذا يذكرنا بقصة (العذاب بالأمل) لمؤلفها فيليبرده ليل آدم الفرنسى. وفيها أحد رجال الكنيسة من أعوان محكمة التفتيش يعذب الناس وتكاد تذوب نفسه إشفافاً عليهم ورحمة لهم، إذ لم يعذبهم كى يطهرهم بالعذاب، ولم يكتف بالعذاب المادى بل كان يعذب السجين بالأمل، فيترك له باب سجنه غير موصد كى يطمعه فى الهرب، فإذا أوشك الرجل أن يهرب وينجو من العذاب دلف إليه واعتنقه واحتضنه رحمة له وعاتبه برفق لرغبته فى الهرب من التطهير بالعذاب والألم وقلبه يكاد يذوب إشفافاً عليه من تلك النجاة. وهذا يذكرنى قول الشاعر:

فكنت كذباًح العصافير جاهداً وعيناه من وجد عليهن تهمل

وهذه القسوة الموصوفة فى القصة قسوة ممزوجة بهستريا الرحمة، ولكن أكثر النفوس فى قسوتها فى الحياة لا تحتاج إلى مزيج من هستريا الرحمة الكاذبة.

٤ - كثيراً ما يخطئ ويخيب ذوى الفكر فى أمور الحياة العامة حيث يصيب النجاح من قل عقله وفكره فإن شدة تصور ذوى الفكر وإدراكهم جوانب الأمور واحتمال ما يكون، وحدة ذهنهم فى بحث تفاصيل الأمر صفات قد تدعو إلى الحيرة والارتباك والتوانى وإلى الشطط عن القصد فى أثناء تلمسهم جوانب الفكر فى الأمر، بينما يمضى الرجل الذى لا يفكر كثيراً إلى ما يكلف عمله فيعمله عملاً متقناً ويصل إليه من أسهل الطرق وأقربها وأكثرها ورُاداً. وإنما مثل ذلك مثل المدية إذا شحذت شحذاً شديداً وأردت أن تقطع بها أطراف أوراق كتاب فإنها ربما حادت وجنحت من حدتها فلا تقطع أوراق الكتاب قطعاً منتظماً بل قد تتلفها، بينما لا تحيد المدية التى هى أقل منها شحذاً. ولعل سعة الفكر تدعو إلى أن يعد صاحبها من الممكن عملياً ماهو من المحال. ولقد رأينا نابليون بونابرت ينجح فى تنظيم إدارة فرنسا وفى تنظيم معاركه، بينما كان خياله وفكره يدعوانه أحياناً إلى طلب المحال، ولقد عرفت من الشبان الأذكياء من أصابوا نجاحاً كبيراً فى الحياة

وكان يتنازعهم العاملان عامل الإرادة الواقعية العملية وعامل الخيال والفكر اللذين كانا يؤديان إلى فشلهم لو استسلموا إليهما كل الاستسلام.

٥ - يلوم الناس الإنسان لأنه لايعرف حدود مقدرته ومقدار عجزه ونقصه، ولكنهم قلما يعترفون أنه قد يجهل قدرته وكفايته وملكات نفسه، وقد يبخسها وينتقص نصيب نفسه منها؛ لأنها تكون كامنة خافية عنه لاتظهرها إلاّ الحوادث المواتية المناسبة، وإنما اختفاؤها عنه كاختفاء منجم الذهب ومعدنه فى بطن الأرض، فإنه يخفى على من هم على سطح الأرض. ومثل هذا الإنسان الذى يخفى عنه مقدار ملكاته كأنما يعيش على سطح نفسه كما يعيش الغافلون عن المعدن الذى فى بطن الأرض ممن هم على سطحها - وقد يستنبط هذه الملكات الإيحاء أو الحب أو المنافسة أو الضرورة، والضرورة التى تستنبط الحيلة والقدرة والملكة فى بعض النفوس إذا صحبها مايدعو إلى الارتباك أو كان فى جهاز جسم صاحبها ما يدعو إلى الحيرة، أخلّ بملكاته ولم ينتفع بها كل الانتفاع، كالذى لاتظهر كنوز نفسه إلاّ إذا ابتعد عن الضوضاء. فإن ضوضاء الحياة قد تشردها كما يشرد لب المرء وكما تشرد أفكاره إذا سمع جلبة وأصواتاً صاخبة. ولكن بعض الناس لاتظهر كل مقدرته وملكاته وكنوز نفسه إلا إذا خاض غمار الحياة وعالج الناس وعشرتهم واحتكت نفسه بالنفوس كما يحتك حجر الصوان بالصوان. وقد يفاجأ المرء ببروز ملكاته وقدرته كما يفاجأ غيره مباغته، وقد كان لا يظن أن عنده تلك القدرة كما كان الناس لا يرونها فى نفسه وبغيات النفوس متنوعة.

٦ - دعانا بعض الفلاسفة إلى نبذ أكثر رغباتنا حتى إذا بلغت أقل حد مستطاع أمكننا أن نحصل عليها من غير مشقة كبيرة ومن غير أن نشقى فى الحياة. وهذه الدعوة مثل دعوة من هو فى حاجة إلى النعل أن يقطع رجليه كى يستغنى عن النعل فلا يشقى بطلبه ولكن ما تقدم إلاّ بالطلب كما لايتقدم من هو فى حاجة إلى النعل إلاّ بقدميه. ومن قديم الزمن ما شحذ ذهن الإنسان ونما عقله ومرن بدنه إلا لأنه خالف هذه الدعوة إلى انتقاص الرغبات والحاجات واستنّ لنفسه سنة الإقبال على طلب الدنيا.

٧ - لو أن إنساناً كتب جميع آرائه فى أمور الحياة المختلفة منذ صغره إلى أن صار شيخاً لوجد اختلافاً وتناقضاً كبيراً فى آرائه فى كل أمر من الأمور فى مراحل العمر المختلفة، ومع ذلك فإن الناس كثيراً ما يلومون المرء لأنه غيرَ وبدلَ فى آرائه، وهم لا يفظنون إلى أنهم يغيرون ثيابهم وأزياءهم ومطالبهم. ولو أن إنساناً لم يتغير رأيه فى الأمور من عهد طفولته إلى مماته لَدَلَّ ذلك على أن عقله لم يكبر وأنه أشبه بالحفريات المتحجرة وإن كانت هذه يصيبها التغير أيضاً - ولعل السبب فى ذلك أن الناس يخلطون بين تغير النفاق الذى سببه الأهواء وتغير النمو، وهم يميلون إلى سوء الظن فينسبون كل تغير إلى النفاق الذى يجعل المرء شبيهاً بالآلة التى توضع فى مَهَبِّ الرياح فتعرف بها الجهة التى تهب منها. فتغير الرأى قد يكون تَهْدِيًّا إلى الصواب ونموا فى العقل وقد يكون طيشاً وعبثاً فيمن لارأى له. وقد يكون مكرراً واحتياطاً للكسب. وبالرغم من أن الناس يلومون من غير رأيه فإنهم إذا وجدوا أرباباً أو نبلاً منه أو قدحاً فيه تناسوا رأيه الجديد وألزموه رأيه القديم وهو يتبرأ منه.

٨ - عرفت أناساً كانوا ذوى مواهب كبيرة نفعت غيرهم ولم تفدهم فهُم كساعة الظل التى كان الناس يضعونها أمام بيوتهم فينتفع بها المارة ويعرفون بها مرور الزمن ولا ينتفع بها أهل البيوت. الذين نَصَبُوهَا. وتلك المواهب النفيسة قد لا تنفع أهلها فحسب، بل قد تضرهم؛ فإن الفائدة المرجوة للمرء فى الحياة لا تكون على قدر مواهبه وإنما تكون على قدر ما يستطيع الاحتيال له من المكاسب والمزايا. فإذا لم تسعفها تلك المواهب على ذلك الاحتيال أخطأت تلك المزايا ولو أن نفوساً أخرى غير نفس ذلك الإنسان لم تنل ما تريد مما يعدل مواهبها ويناسبها ويوازنها ما بالت نفسه، وقلما تسخَّطت أو حاولت عبثاً أن تغير سنة الحياة إلا فى حالتها.

٩ - رغبة بعض المفكرين فى إبطال مطامح الناس التافهة ورغباتهم التى لا قيمة لها فى ذاتها، وإنما تكتسب قيمتها من تكالب الناس وتهالكهم عليها، خطة تدل على نقص فى الحكمة والخبرة بأمور الحياة؛ إذ أن كثيراً من أمثال تلك المطامح إذا جعلت جزاءً للعامل ومكافأة للمُجِدِّ، ترغبه فى الكدح والعمل وفى ارتياد

سبل الفضائل والفضل . أما أن يقال إن الفضائل ينبغي أن تتطلب لمحبتها والرغبة فيها لا لجزاء عليها فنظرة حسنة، ولكن طباع الناس في الحياة تخالفها وتتطلب جزاء عليها، ولا مناص مما تتطلبه الحياة، فالشهوة والرتب والأوسمة وما شابهها أمور لا قيمة لها في نفسها، ولكن قيمتها فيما تؤدي إليه من العمل والجد. ولقد ترى الرجل الفقير الجاهل يكدح طول حياته ويتخلق بخصال الحمد ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ كى ينال رثاءً حسناً إذا مات، وكى يكتب بعضه على قبره - وهذا يذكرنا كلمة لنابليون بونابرت فى هذا المعنى وفى فائدة الرتب والأوسمة عندما ليم على إحيائها بعد أن محتها الثورة الفرنسية. ولكن سوفيت بالرغم من فطنته إلى أنها وأمثالها مدعاة إلى العمل ومن محركات الحياة فإنه يسخر بالتمهالكين عليها فى كتاب أسفار جاليفار. إذا اتخذوا الائتمار والكيد والتملق وسائل إليها وأمعنوا فى عمل الشر بسببها.

١٠ - بالرغم من أنه لم يكن بين الناس من استطاع أن يجعل آراء الناس ذات طول وعرض ونظام ومقصد واحد فإن كل مفكر يود أن يحمل الناس على اعتناق آرائه أو يأمل كما أمل أبيقور أن يصير الناس يوماً إلى زمن مقبل تتشابه فيه الآراء والأنظمة بعد أن يُشَدَّب بعضها بعضاً كما يشدَّب الحَصَاً باحتكاكه، فتتحول الحصوة الثقيلة والخفيفة والمستديرة والمستطيلة إلى شكل واحد ووزن واحد أو كما أمل كارتيزيوس أن تجذب فلسفته الآراء الفلسفية المتناقضة إليها فتدور حولها كما تجذب الكواكب غيرها من الكواكب. ومن هذا السبب نشأ اضطهاد الفكر للفكر. فلو تقصينا التاريخ لوجدنا كل طائفة تدعو إلى حرية الفكر مادامت تضطهدها غيرها، فإذا تخلصت من الاضطهاد وصارت لها السيطرة حاولت أن تقيد أفكار غيرها؛ ومن أجل ذلك كانت محاولات تحرير الفكر مصحوبة بالرغبة فى تقييده أو يعقبها اضطهاد من نوع آخر - وقد تَبَّعَ (فان لون) فى كتابه (تحرير الإنسانية) خطوات هذا الاضطهاد من عهد الكهوف إلى عهد الجيلوتين. ولو كان الفكر غير باعث على العمل ربما استطاعت الفئة الغالبة إهماله. وما صنعه (فان لون) صنعه فى صيغة أخرى برتران ده جوفنيل فى كتاب (القوة) وقد قال جوفنيل: إن كل من يستبد بالقوة إنما يفعل ذلك بدعوى أنه

ينوب عن الشعب . والواقع - كما أوضح - أن فى استسلام الشعب ما قد يسوغ هذا القول، وإنما كان يندر الشعوب من عواقب المستقبل . ومن الغريب أن جوفنيل - وكان مندوب فرنسا فى سوريا - يقول فى القوّة قولاً قاله قبله شيلى الشاعر الإنجليزى فى صيغة أخرى، فقد قال فى بعض قصائده (إن القوّة كالوباء الذى يتفشى فيصيب كل مايقربه والخنوع لها عدو للذكاء والفضيلة والحرية والحق ويحيل الناس أرقاء ويجعل أجسامهم آلات مسيرة) ولكن كيف يستطيع الإنسان أن يكون فى غنى عن القوّة أو أن يقيدها؟!!

فالثورة الفرنسية التى كانت ثورة على القوّة وأعطت فى أول الأمر كل مدينة أو إقليم حق انتخاب حكامه كلهم، حتى ضعفت سلطة الوزراء فضعفت الدولة بسبب ذلك، ما لبثت أن صارت فى عهد مجلس أو لجنة السلامة مركزية شبه توتاليتارية . وبالرغم من أن جان جاك روسو فى كتابه (العقد الاجتماعى) كان بشير الحريات الفردية فإن به نزعة توتاليتارية تظهر فى أمور كثيرة منها: تقديس الدولة، والقول بانعدام حق كل إرادة فى الإرادة العامة . ومنها: إباحة حكم الحاكم الدكتاتورى الفرد الذى ينوب عن الديموقراطية فى بعض الأحيان . ومنها: القول بنفى أو قهر من له إرادة لم تنعدم فى الإرادة العامة . ولما كانت الإرادة العامة كالديموقراطية أمراً تقريبياً فهى إرادة الكثرة أو ما يُسمى الكثرة، وإن كانت كثرة ظاهرية . وبعض اليعقوبيين الديمقراطيين قالوا - عند ما كانوا قلة - إنهم كثرة؛ لأنهم يمثلون مرافق الشعب الحقيقية وإرادة أجيال الشعب فى العصور الطويلة المقبلة عندما يتعلم كل أحاده أن يعدم إرادته فى الإرادة العامة . فالعالم لاتزال تتنازع فيه القوّة الطوائف والأحزاب المختلفة وكلُّ يريد أن يسود رأيه وأن يقهر رأى غيره . ومن الطريف أن نابليون بوناپرت وقف يوماً على قبر جان جاك روسو وقال - وقد كان فى صغره يردد آراءه - لقد كان من الصالح العام لو أن هذا الرجل لم يولد . فقال له جيراندين إن آراءه أفسحت لك الطريق، يعنى بأثرها فى الثورة الفرنسية، فقال نابليون: ربما كان من الصالح العام لو أن كلينا لم يولد .

١١ - ربما خيّل لنا أن الكلام المواتى الكثير من المحدث أو الخطيب دليل على غزارة مادته من اللغة والرأى. وهو كثيراً ما يكون دليلاً على أن مادته محدودة فيستطيع اختيار ما يختار من الكلام من غير مشقة. فإذا غزرت مادة الإنسان من لغة أو علم أو رأى قد يطول تردده قبل الكلام - ولعلّ في هذا بعض العزاء لذوى العى؛ إذ غاية ماتصل إليه غزارة المادة أن يكون المرء أشبه بالعبيّ في تردده قبل الكلام من وفرة المادة، كما قال الشاعر:

تكاثرت الطباء على خراشٍ فلا يدرى خراش ما يصيد

وكثرة الكلام مع قلة المادة أمر معروف. ولعلّ أفكه مثل لهذه الثرثرة وإن كانت ثرثرة كُسيّت من بلاغة الأديب مؤلفها كتاب (محاضرات الكلّة) أو الناموسية والسريير، وهى محاضرات تعظ فيها مسز كودل زوجها وتؤنّب بعد ذهابهما إلى الفراش، وهى من تأليف دو جلاس جيرولد. وقلة المادة لاتعوق تأثير الكلام الكثير فى السامع، فإن الكلام يؤثر بترداده كما هو مشاهد فى السياسة وفى غيرها من مظاهر الحياة المختلفة. بل لعلّ قلة المادة تدعو إلى أن يفضله كثير من الناس لقلة العنت فى فهم مادته القليلة.

١٢ - قد يتحدث الرجل صاحب الفطنة والذكاء فيخالط بعض كلامه شيء من الفكاهة العامة البريئة فيحسبها السامع انتقاصاً له، وهى ليست انتقاصاً وإنما يفعل ذلك إذ يقول فى نفسه: إن هذا الرجل المفكر لابدّ أن يكون وراء كلامه معنى مُستتر غير ظاهر معناه - ومثل هذا الشك غير مقصور على المحدث الفطن أو من كان من أهل الفكر من الناس وإن كان يساء الظن بهم أكثر من غيرهم. فإن السامع إذا صادف كلام القائل صفة يخشى أن يظنها الناس فى نفسه عد كلامه تعريضاً به، وربما تسرّع بالإساءة إلى قائلها، ومن أجل ذلك يُفرض على مؤلفى القصص أن يقولوا إنهم لايعنون أحداً بأناس قصصهم وإنهم من صنع الخيال. والواقع هو أن صاحب الفن يستمد من الأمور المشاهدة العامة مادة لفنه فيجعلها فن عاماً، ولكن الناس كثيراً ما يحيلون الفن العام إلى شخصيات معينة، وذلك

فى قول المفكر أو القصضى أو الشاعر. وأكثر هذه الإحالة ترجع إلى العقد النفسىة وإحساس الناس بصدق قول فرويد فى كتاب (العلل النفسىة) إن كل نفس إنسانىة تجمع فى وعىها الباطن ونزعاته وصفاته الكامنة كل ما هو إنسانى فى جمىع النفوس، بل كل ما هو حىوانى فى الحىوانات كلها، فىجعلون كل ما فى الوعى حقىقة كائنة فى الحىاة متى أرادوا. وانتقالهم بالفن أو الفكر من التعمىم إلى التخصىص فىكون بالرغم من مىل الناس إذا كان لهم أرب أو شهوة إلى التعمىم فى أحكامهم المخطئة. كتعمىمهم فى الحكم على الأمم أو الأحزاب أو الطوائف الكبىرة.

١٣ - فى أثناء طلب أمر من الأمور ومحاولة نىله والسعى والعمل له يفكر المرء فى محاسنه وأطابىه ومسراته وفضائله، فإذا ناله بدأ يفكر فى أوجه النقص فىه وفىما قد فىكون فىه من المساوىء والعىوب، وإنما رُكِبَت النفس على هذا الوجه وجبلت على هذا الطبع كى تستأنف مطالب الحىاة وكى تطمع فى المزىد من محاسن الأمور فتعمل وتكد، وربما بخست الأمر الذى نالته كى تستطىع تحقىق هذه السنة الحىوىة التى هى قوام الحىاة.

١٤ - إذا هاج البحر ورأى أهل سفىنة أن تُخَفَّفَ أحمالها وأثقالها كى تنجو وىنجوا من الغرق بأن فىذفوا بعض أحمالها فى البحر، ربما حاول كل منهم أن فىخفى متاعه وىعظ غىره كى فىلقى متاعه فى البحر، وهذا مثل الذىن فىفضلون نفع أنفسمهم على نفع الجماعة ونجاتها، فتضىع أنفسمهم وتضىع الجماعة التى هم منها. وهذا التواكل فىكثر عادة فى الأمم التى فقد آحادها الثقة بعدل حكومات بائدة وحكومة كائنة.

١٥ - إذا أراد الإنسان أن فىتسلق وىعلو فىلابد أن فىتسلق كما فىفعل القردة على قدمىه ورجلىه. والطمع فى مناصب الجاه والسلطة قد فىطلب من المرء ما هو شبىبه بالزحف على الیدىن والرجلىن وىعنى فىتقرب بوسائل التملق والخنوع ومعاونة من فىرجى نفعه على شهوات غضبىه أو حسده أو محاباته إلى آخر هذه الأمور، فقد شبىها بالزحف على القدمىن والیدىن أو بالتمسك بهما كما فىفعل القروء.

١٦ - السبب فى خيبة كثير من الأزواج أن نساءهم بدل أن يتخذن من الزواج أقفاصاً لأزواجهن كأقفاص العصافير المدللة البيئية التى تزين أقفاصها كى تأنس إليها، يتخذن من الزواج ما يراه الرجال أشبه بالفخاج والشباك التى تصاد بها الحيوانات .

١٧ - كثيراً ما يذكر أهل التعاسة حكم الدهر ومشية القدر الغالبة الناقدة . أما السعداء فقلما يذكرون هذه الأمور، ولاسيما الذين يثقون أن الجاه والثروة والسعادة لن تزول عنهم؛ إذ إن هؤلاء، ينسون حتى أثر الأقدار فى توزيع الصحة والمرض والذكاء والغباوة والأحوال المساعدة للنجاح . وهذا يذكرنا قصة رجل أصاب غنيمة من مال كثير اختلسه من غير تعب، فكان إذا طلب منه إنسان صدقة يقف ويلقى عليه محاضرة فى فوائد الاجتهاد والجد فى العمل، ويقول له: لو كنت اجتهدت لصرت مثلى .

١٨ - كثيراً ما يعلل المرء نفسه بأن العصور المقبلة ستقبل على ما انصرف عنه أهل عصره، وستشغل بما كان أهل دهره عنه فى شغل . فينصفون عمله أو قوله كما أراد . وينسى أن أهل العصور المقبلة تستجد لهم فيها أقوال وأمور هم بها فى شغل . وهذا الوهم هو مما يزيد إقبال الناس على العمل والفكر والتضحية وإن كان قلما يتحقق، ولكنه من سنة الحياة التى تزيد ثمرة أعمال الناس حتى بالوهم .

نظرات جورج أليوت سويفت^(١)

- ١٤ -

جورج أليوت هو الاسم الذى اشتهرت به ماري إيفانز الكاتبة الإنجليزية الشهيرة، وقد اشتهر من الكاتبات الأوروبيات، وربما كانت لبعضهن شهرة عالمية أكثر من شهرتها، ولكن الفحص والتمحيص يدل على أنها من غير شك أعمق بصيرة وأغزر فكراً وأرجح رأياً وأعظم خيالاً من مدام ده سافيني، أو مدام ده ستايل، أو جورج ساند، أو جين أوستن أو غيرهن. ويمكن تقسيم مؤلفاتها الهامة إلى أربعة أقسام: القسم الأول يشمل القصص التى تشرح فيها صفات نفوس من حولها من الناس، وهذه الكتب مثل أموس بارتون، وآدام بيد، وسيلاس مارنر وغيرها هى أكثر كتبها رواجاً بين القراء الإنجليز؛ لأن موضوع كل منها أقرب إلى أذهانهم، ولأنها أسهل أسلوباً. والقسم الثانى من مؤلفاتها يشمل قصة رومولا التاريخية التى تصف فيها عهد إحياء العلوم فى إيطاليا بمحامده ومكارهه. والقصة التاريخية أشق وأصعب فى تأليفها؛ لأنها تحتاج إلى دراسة ذلك العهد ونقد ما يذكر عنه وتصوره ببصيرة نافذة. وقصة (رومولا) من القصص التاريخية الكبيرة التى يصح أن تحتل مكاناً ما بين ازمووند لثاكرى، وسان أنطوان وسلامبو لفلوبير وتاييس، والآلهة ظمأى لأناتول فرانس وبعض القصص التاريخية الشهيرة الأخرى. والقسم الثالث من مؤلفاتها قصة مدمارث، وقصة دانيال ديرواندا، وهى لاتقل فيهما بصيرة، ولكنها تبعد عن النفوس المألوفة حولها التى وصفتها فى القسم الأول، كما أن عادة الاسترسال فى الفكر تغلب عليها ويغلب عليها

(١) المقتطف : إبريل سنة ١٩٤٩.

الأسلوب الفكرى . والقسم الرابع من مؤلفاتها رسائل ثيوفراست دعته باسم فيلسوف إغريقى قديم، وهى وصف لخصائص أخلاق الناس على نمط لابروبير . وهذه الكاتبة - فضلاً عن أنها درست ثقافات الأمم المختلفة كما يتضح من قراءة مؤلفاتها - فإنها وارثة بصيرة شكسبير وهنرى فيلدينج القصصى الإنجليزى على اختلاف ما بينها وبينهما . وكثيراً ما تذكرنا مقدمات فصول توم جونز لهنرى فيلدينج - وهى على شكل رسائل وبحوث فى النفوس بآثار هذه الكاتبة، ويصح جمع كلمات عديدة من مؤلفاتها لاتقل عن كلمات عظماء المفكرين من الرجال .

كما يتضح من نظراتها الآتية :-

١ - إذا أساء إلينا إنسان ثم خاب فى أمر لاصلة له بإساءته أو خاب فى أمور حياته عامة أحسنا كأن خيبته فى أمور حياته بسبب إساءته إلينا . كأن نظام الحياة لا يستقيم مادام قد أساء إلينا إلا بخيبته، وكأن تلك الحية نتيجة طبيعية للإساءة إلينا . وهذا الاحساس يشتد أعظم ما يشتد فى نفوس ذوى الأثر والجهل . ولعل سببه أن المساء إليه من غيظه يريد الانتقام، فيتخيل أنه قد أصابت المسىء مصيبةً فاذا حلّت به مصيبةٌ سهل عليه أن يحس أنها نتيجة إساءته إليه . وكل إنسان كما قال أناتول فرانس يحس كأنه قطب الدنيا ومحور العالم وكل من يسىء إليه - إذاً - يكون كأنه خارج على نظام العالم، فلا غرو إذا خاب وفشل !!

٢ - وقد يكون الإنسان فظاً قاسياً فى نقد الناس وأعمالهم، ومع ذلك قد يكون رقيق الحاشية والطبع مع أسرته . وبعض الكتّاب كان بيده اليمنى وصول بقلم يقطر سما وهلاكاً فى نقد إنسان آخر، وبيده اليسرى يهز أرجوحة طفله الصغير بحنان ورفق . . . وهذا يذكرنا هيبير مندوب المجلس البلدى بباريس أيام حكم الإرهاب . وهذا الفارق يعظم أيام الاضطراب والثورات . وقد وصف الدكتور كابانيه فى كتابه لنفروس رفلويسنير كيف أن الإنسان الرقيق الطبع الوديع الأخلاق قد ينقلب ويصير وحشاً ضارياً إذا كان فى جماعة تحبذ أقواله وأعماله القاسية . وفى هذا مصداق النظرة التالية لجورج اليوت وهى :

٣ - عندما نخدع الناس أو نسىء إليهم ونحن وحدنا قد نتردد ونتحرج من بعض أساليب الخداع أو الشر ونأنف منها ونخشى اللوم ولا نريدها إلا للضرورة

القاهرة فإذا اجتمعنا والناس واتفقنا معهم فى تلك الأساليب ووجدنا منهم تحبيداً لها تسلطت أساليب الخداع أو المكر أو الشر والإجرام علينا، ولم نشعر بصعوبة فى ارتيادها مادام الناس معنا، وهذا ما وصفه وضرب له الأمثال الدكتور كابانيه فى كتابه عن الاضطراب الثورى وأثره فى النفس والجسم.

٤ - إن الإنسان قد تكون نظرياته ومبادئه مخطئة، ولكن إحساساته وأعماله نبيلة كما يصدق العكس، فقد تكون نظريات المرء ومبادئه وعقائده سامية نبيلة فيما تكون أعماله بالضد من ذلك. ومن أجل هذا الخلاف ينصح النقاد للمؤرخ أن يميز بين مبادئ رجال التاريخ وبين أعمالهم. وهذه نصيحة واجبة لكل إنسان فى الحياة اليومية أيضاً، إذ كثيراً ما يخطئ فيظن أن مبادئ المرء وإحساساته وأعماله كلها من طراز واحد، وهى أصناف مختلفة.

٥ - إن ذوى النقص والعاهات فى حاجة إلى فضائل ومزايا تزينهم؛ لأنهم يشعرون بقلق إذا لم تكن لهم إلا عاهاتهم، أو كان لهم نقصهم وحده. ولكن الفكرة التى تجعل الفضائل أو الفضل بدلاً لهم ووقاية كما تقى الطبيعة الحيوانات فى الشتاء البارد بفرو كثيف - فكرة مبالغ فيها مبالغة كثيرة، إذ كم من أناس من ذوى النقص أو العاهات لافضل لهم ولافضيلة إلا أن يكون الفضل ومزايا النبوغ كامنة فى النفس تظهرها الحوادث سواء أكانت عاهات أم لم يكن نقص - فمن الذى يستطيع أن يقطع بأن ذكاء زياد بن أبيه وفصاحته وقدرته فى تصريف الأمور كلها كانت بسبب مطعن أو مغمز فى نسبه ولم تكن هبات طبيعية فى نفسه. ومن أجل ذلك يخطئ بعض العامة خطأً أولياً فى علم المنطق فيقبلون هذه الفكرة ويجعلون الفضل على عاهة أو نقص. وهذا يذكرنا بعض الشواهد التى تصف هذا الخطأ فى علم المنطق كمن يقول مثلاً كل القِطَعةِ حيوانات. فإذا كل الحيوانات قِطَعةٌ، وقلب الفكرة لايجوز فى علم المنطق.

٦ - من الغريب أن الناس كثيراً ما يتعجبون لحدوث شىء هم الذين عملوا لإحداثه، كما يتعجبون إذا لم يحدث أمر لم يصنعوا شيئاً لإحداثه، كالآباء الذين يتعجبون من جهل أبنائهم وقلة تربيتهم وهم السبب؛ إذ لم يحزموا أمرهم

لتربيتهم، والأزواج يتعجبون لفقدانهم المحبة وانقطاع أواصرها بين الزوج وزوجه ولم يعملوا لهيئة سبيل بقائها، والجيران يتعجبون من نفور جيرانهم منهم ولم يعقدوا أواصر المودة معهم.

٧ - ما أشد اعتماد الناس على ما قد يأتي عفوًا، فإذا عمل المرء عملاً يحط من كرامته تعلق باحتمال عدم ظهوره، وإذا أسرف تشبث باحتمال الكسب من وجه آخر غير منظور ولا محتمل، وإذا أساء تنظيم عمله تمسك باحتمال أن إساءته تنظيم عمله ليست هامة لنجاحه فيه، وإذا خان صديقه اعتمد على أن الصديق قد لا يعرف خيائته له. وعاقبة ما نزرع من بذور تلك الأوهام الباطلة في الاعتماد على الأمر المرغوب فيه الذي هو غير محتمل الحدوث إنما تنتج محصولاً باطلاً ومحالاً من نوعها. وليس الجهلاء وحدهم هم الذين يتشبثون بالمحال المرغوب فيه؛ فقد قال مارمونت وغيره: إن نابليون بونابرت في أواخر أيام مجده كان مهما صححت له الحقائق يعود إلى ما حسبها قبل تصحيحها.

٨ - ما أشد إلحاح الرغبات الإنسانية، فإذا تملكك النفس رغبة لا يغنيه أن تقدم له ماهو عوض عنها من أمر آخر ولو كان مثلها أو خيراً منها. وهذا مشاهد في تشبث الأطفال بالأمر المرغوب فيه، كما هو مشاهد في تشبث الكبار.

٩ - الشعور بالأمن يكون ناشئاً من العادة أكثر مما يكون ناشئاً من الأدلة والاعتقاد؛ ومن أجل ذلك كثيراً ما يوجد الشعور بالأمن إذا اعتاده الإنسان حتى بعد زوال الأحوال التي جعلته عادة وصيرت الإنسان يسكن إليه ويطمئن، فإن منطلق العادة يغلب على ذهنه، ويرى أن الخطر محال حدوثه مع أن مرور الزمن قد يكون السبب في حدوثه. ومثل ذلك مثل الرجل الذي يكون سقف بيته آيلاً إلى السقوط، فإذا لم يسقط وتعود الأمان حرمة تلك العادة من أن يرى في مرور الزمن ماهو كفيف بإيهاه وإضعافه وسقوطه، وقس على ذلك كل أمور الحياة.

١٠ - إنها قاعدة عامة وهي أنه لا بد للنفس من أمر خفى غير موثوق به كى يُغذَى أملها وشكها وعملها، فلو انكشفت لنا أمور المستقبل لما علققت النفس بها ولأسرعت بأملها وعملها وشكها وشعورها إلى غير المستقبل المكشوف

المعروف... وهذا الرأي أصح حجة من تعجب كعب بن زهير من سعى الإنسان وعمله مع أن القدر مخبوء عنه، وذلك فى قوله:

لو كنتُ أعجب من شيءٍ لأعجبني سعى الفتى وهو مخبوءٌ له القدر

١١- إذا تحمل أحد الناس غضبنا بسكوت وطيبة قلب وعطف، فإننا إذا سكن غضبنا قد نشكّ بسبب مسلكه معنا وهدوئه فى مداراة غضبنا فى أننا كنا على حق، ونشك فى أن معاملتنا له كانت معاملة لائقة ويزداد هذا الشك والأسف إذا مات من تحمل غضبنا بسكوت وطيبة قلب، وذهب إلى عالم الصمت الأكبر.

١٢ - قال يوليسس فى قصة ثوفوكليس: دعنا مرة واحدة نرتاد سبيل المكر والكذب والاحتيال والشر إلخ ثم نعود بعدها دائماً أبداً إلى سبيل الصدق والشرف فى العمل والفكر والوسيلة، وهذا كثيراً ما تقوله النفس فى باطن نفسها استدراجاً لها ومخادعة، فتستمر فى الكذب والمكر والشر أكثر حياتها بعد أن كانت توهم نفسها أنها مرة واحدة صغيرة ثم بعدها مرة أخرى صغيرة إلخ.

١٣ - كل عمل مذموم يستدرج صانعه إلى أعمال وأقوال عديدة مذمومة كى يزكّيه ويسوغه، وكى يزكى ويسوّغ الأعمال المذمومة التى يزكّيه بها. وتستمر تلك العدوى فى نزعات النفس ورغباتها فإذا أثم المرء لم ينته إثمه بعمله، ولا تنقطع سلسلة آثامه، إلا إذا اعترف بخطئه أو إثمه، فلا يحتاج إذاً إلى شرور كى يزكّيه. وإذا ظلم إنساناً لايقنع حتى يزكّيه بظلم آخر. وهذا يذكرنى ما صنعه أحد الكرادلة الذى نقم على رجل نقده فاتهمه بالكفر بالمسيحية فى عهد كان جزاء من يتهم به الحرق. ولم يكتف بذلك بل إنه صهر فى النار صليباً من الحديد وقدمه إليه كى يتوب ويقبله وكان الرجل موثقاً فنفر من ألم حرارة انصهار الصليب وزوى وجهه عنه. وإنما فعل عدوه ذلك كى يقال إنه نفر من الصليب لكفره بالمسيحية؛ إذ كان الناس لايعرفون أنه وضع الصليب الحديدى فى النار. وهكذا زكى هذا الكردنال إثمه الأول بإثم ثانٍ - على أن تزكية العمل المذموم أو القول المذموم بعمل أو قول آخر مذموم أمر مألوف كثير الحدوث فى الحياة اليومية.

١٤ - كثيراً ما نخدع أنفسنا حتى نصدق أن أثرتها في معاملة الناس كانت تكون أقل قسوة وأكثر إنصافاً وأبرّ بهم وأعدل لو أننا عرفنا حقيقة حالتهم، ولكن إثارتنا الرفق لا يقوى إلاّ بعد فوز أثرتنا ونيل أنفسنا ما تريد لا قبل الفوز به. وقد تعرف النفس حالة من تعاملهم، ولكنها تناساها حتى تناساها، وتتجاهلها، حتى تجهلها، مغالطة من النفس للنفس، كى تدعى أنها كانت تكون أرفق وأبر وأعدل، على أنه بالرغم من هذه المغالطة فإن الفوز قد يزيدا أثرة وعنفاً وقسوة وظلماً.

١٥ - بعض الأخيلى التى نخدع بها إنما نخدع بها ونحن نشعر بذلك الخداع، واللذة فيه كاللذة التى نجدها فى رؤية مجموعات الألوان التى تصنع من قطع الزجاج الملون فتتخذ أشكالاً بديعة فى الفانوس السحرى. وكما أن الطفل يلذ له أن يلعب لعبة أساسها خداع النفس بالأموال وحقائقها حتى يصير لعه جداً، كذلك العاشق يلذ له أن يخدع نفسه وهو يعرف أنه يخدعها. وهذا يذكرنا قول أبى نواس:

صار جداً ما مزحتُ به ربَّ جد ساقهُ اللعب

١٦ - لعل السبب فى أننا كثيراً ما نخيب فى أن نعزى معاشرنا فى مصاب أصابهم ونسليهم عنه أنهم يشعرون ونحن نعزيهم بحبنا لأنفسنا، وأننا إنما نفكر فى كل ما يهمننا من مطالب أثرتنا. وهذا لا يمنع أن تكون ممزوجة بشيء من العطف على الناس فى مصابهم وإن كانت هى الغالبة. وبالرغم من أن كل إنسان يعرف ذلك فى نفسه، فإنه إذا أصابه خطب أو مصاب أمل أكثر من ذلك من غيره وتوقع مشاركة أعظم منه فى مصابه أو خطبه.

١٧ - الحياة اليومية هى محاولة كل إنسان أن يخفى نفسه عن معاشره وراء كلمات وأعمال مزيفة، وهؤلاء المعاشرون أشد بعداً عن المرء من نفسه وخواطرها وما بها من شرور لا تنطق بها، ولا تبين عنها، وقد لاتعملها، ومن خير كثير قد لاتصنعه. وكثيراً ما نفكر فى عمل آثام لانستطيع أن نعملها، كما نفكر فى صنع أعمال من أعمال الخير أو اللباقة والمهارة لانستطيع عملها. فخواطرنا قد تكون أسوأ أو أفضل منا. وقد علل سمرست موام القصصى اتهام الأتقياء الأبرار الأخيار أنفسهم أو توقعهم العقوبة فى الآخرة بخواطر السوء التى تتردد فى

النفس ولا تصنع صنعا، كما أن بعض الناس قد يمدح نفسه بسبب خواطر الخير التي تتردد في نفسه ولا يعمل شيئا لتحقيقها.

١٨ - كما أن الشاب المملوء صحة وحياة ونشاطا يصعب عليه أن يدرك الموت كل الإدراك، وأن يحسن وطأته مهما رأى من مظاهره. كذلك يصعب عليه أن يدرك الشقاء الكارث وأن يحسن وطأته. وهو يؤمن في سريرة نفسه أن المقادير لا بد أن تنجي شبابه وصحته ونشاطه وحياته منه حتى ولو كان ذلك في آخر لحظة قبل أن يكرثه. ولعل هذا الإحساس هو سبب استهتار الشباب أو شجاعته واستهانته بمعضلات الحياة.

١٩ - مما يساعدنا على أن نعمل في الحياة عملاً قليلاً طيباً أننا لانعرف ما في سرائر أصدقائنا ومعاشرينا عنا مما يثبطننا، وليس في الحياة مرآة تعرفنا حقيقة أنفسنا فنطمئن. وهذا الاطمئنان يجعلنا نظن أننا نعمل عملاً كبيراً عظيماً، فنستطيع بذلك أن نعمل ولو عملاً صغيراً طيباً. وكما أن الطفل الصغير الذي لم يتعود نظره الصغير بعد قياس المسافات، كثيراً ما يصطدم بالأشياء، كذلك الإنسان الذي لم يختبر أمور الحياة بفتنة يحسب أن مكانته في الحياة مكانة كبيرة وهي صغيرة جدا، ويصطدم بالعراقيل كما يصطدم الطفل الصغير بالأشياء إذ لم يتعود بعد قياس المسافات بنظره.

٢٠ - كثيراً ما يسوغ المرء أموراً غير سائغة ولا جائزة بتغيير أسمائها، فيسمى اضطهاده الناس مقاومة، أو الخرق والهوج إصلاحاً وتجديداً. وقس على ذلك جميع أمور الحياة التي لاتسوغ، فتغيير أسماء الأمور يستطيع المرء أن يعمل ما هو حبيب إلى نفسه وإن كان شراً مكروهاً.

٢١ - ليتذكر المرء إذا أقدم على عمل أن الحياة كعملية حسابية لا يستطيع عملها مرة ثانية لتصحيحها وتلافى أغلاطها، كما لا يستطيع تصحيح عمل الطرح بأن يعمل عمل الجمع في الحساب صحيحاً.

٢٢ - إن الناس قد يرحمون الميت وقد يزكونه. وطالما كانوا يرون من الواجب المفروض، سحق قلبه، مادام ينبض وقهر عقله مادام يفكر، فإذا سكننا سكون الموت فلا بأس من الإحسان إليه بكلمات مزيفة وإحساس بالرفق مصطنع.

٢٣ - إن تخدير النفس بتجاهل الحقائق حتى تجهلها، حالة نفسية تختلف كل الاختلاف عن حالة السكينة والاطمئنان مع معرفة الحقائق معرفة تامة. ولكننا كثيراً ما نخلط بين الحالتين.

٢٤ - أول ما يصيب المرء الخطب أو الضيق قد تستفزّه الإصابة المفاجئة فتكسبه قوة مؤقتة لاتزول حتى يصير الحزن والخطب عادةً ونيراً.

٢٥ - بعض الناس لا يستطيعون تحمل حتى القليل من الإهانة إلا إذا استطاعوا أن يغمضوا أعينهم عنها، أو أن يتمكنوا من الامتناع عن تصديقها ومعرفتها والإقرار بها والفتنة إليها ومغالطة أنفسهم فيها. فإذا لم يستطيعوا إلاّ مواجهتها ومعرفتها كانت حياتهم عبثاً ثقيلاً ربما لا يقدرّون على حمله مع أن كل إنسان لا يخلو من أمثالها في الحياة.

٢٦ - إن بعض ذوى النجاح وإن كانوا معروفين بسلامة الطوية والنية قد يجدون لذة في إيقاع الشر ببعض الناس إذا كان عمله سهلاً ولا يعوق أعمالهم الناجحة. وكأنما يصنعونه على سبيل اللهو أو الفكاهة أو التنفيس عن خطرات كامنة في نفوسهم أو لإثبات قدرتهم. وهذا الرأى يذكرنى بقصة لسمرست موام عن تاجر إنجليزي في اليابان كان ناجحاً وكان معروفاً بين أهله ومعاشريه بطيبة القلب، فطلب منه أحد الخيّاب من بنى جنسه أن يجد له عملاً يرتزق منه، وكان هذا الخائب في شبابه مشهوراً بالسباحة في البحر قبل أن يصيب الدهر من قوته، فاشترط التاجر عليه أن يسبح مسافة طويلة في البحر في مكان شديد التيار، فإذا فاز ألحقه بعمل يرتزق منه. ولكن الرجل هلك في أثناء سباحته، وعندما سأل سائلٌ التاجر عن سبب اشتراط هذا الشرط قال مبتسماً: الحقيقة هي أنى لم يكن عندى له عمل، أى أنه كان يعرف أنه هالك لامحالة، وأنواع هذا الشر من أهل النجاح وأمثاله كثيرة الوسائل... وإذا أصاب النجاح خائباً عفواً من غير جهد كبير منه فقد عليه أهل النجاح الذين كدوا واحتالوا للنجاح وعدوها قسمة ضيزى، مع أن نجاحه قد لا يؤثر في نجاحهم ولا يقلل منه. وإذا كان هذا الحقد والحسد شأن ذوى النجاح فكيف بما يعانیه التعساء المحرومون.

٢٧ - من السعادة أن يعود المرء نفسه أن يعيش معها بدل أن يشرب دائماً إلى اعتبار الحياة سوقاً يرتاده الناس للتفريح عن أنفسهم برؤية المعروضات. وبعض لم يعود نفسه أن يعيش معها لا يطيق عشرة نفسه. وهذا من أسباب الحاجة إلى المصادقة والمصاحبة.

٢٨ - كثيراً ما نعمل عملاً فلا نرى من الناس ارتياحاً إليه أو اقتناعاً به أو إعجاباً. ولا يثبنا ذلك، ولا يصرفنا عن عمله، بل نحسب أن سبب عدم ارتياحهم واقتناعهم قلة ما صنعنا منه، فنثابر على عمله توقعاً لظهور ارتياح الناس إليه واقتناعهم به وإن كان غير مقنع.

٢٩ - قد يتوقع المرء حدوث الأمر المحال وهو يؤمن إيماناً تاماً أنه سيحدث. ولا فرق بين هذا وبين الجنون إلا أن الحوادث قد تبدد ذلك التوقع والإيمان، ولا تبدد الجنون.

٣٠ - إن الطبع الذي يميل دائماً إلى السيطرة والتحكم حتى في الأمور التافهة الصغيرة لا بد أن يكون به جانب من الضعة والحقارة ويخفيهما بذلك التحكم.

٣١ - بعض اللغات قد تكون فيها طلاوة وحلاوة لا يشعر بها من يقرؤها، كذلك بعض الوجوه قد تعبر للرائي عن أكثر مما في أنفس أصحابها من معانٍ.

٣٢ - عندما يريد الناس تصديق الأكاذيب أو إذاعتها حتى يصدقها غيرهم يقولون:-

لادخان من غير نار... ومثلهم مثل الذي يُعكّر الهواء بدخان (بيته) أو نرجيلته أو لفاقة تبغه ثم يحسب أن الدخان والنار من عند غيره وهي من عنده، والأكاذيب أو النقائص التي يراد تصديقها في نفسه.

٣٣ - المصلحون يشعرون بسرور في كل إصلاح، ولا يعطفون على النفوس التي تأسف مع ذلك لما يصيب كثيراً من الناس في كل إصلاح من ضرر وألم وشقاء بسبب انتقال الأمور من حال إلى حال عند الإصلاح. والمصلحون لا يقتصرون على حرمان تلك النفوس من العطف، بل إنهم قد يعدون أسفها

على من نالهم الشقاء بسبب الإصلاح، خلافاً لهم فى الرأى والمبدأ، أو خيانة لعهد الإصلاح فيشركونها فى الشقاء أو الإعدام.

٣٤ - لا يستطيع العامل صنع عمل جليل شبه معجز إلاّ بإيمانه بنفسه، وأكثر إيمان العامل بنفسه مستمد من إيمان الناس به أو إيمان طائفة كبيرة منهم، ولكنه إذا فقد إيمان الناس به، لا يلبث إيمانه بنفسه أن يززع مهما كان عظيماً، إلاّ إذا كان قليل الإحساس لا يلتفت إلى حقائق العالم. على أن العامل قد يكون هو الذى خلق إيمان الناس به فى أول الأمر.

تكملة نظرات جورج أليوت سوينت^(١)

- ١٥ -

١ - بين النساء من يدفعها طبعها إلى الحماسة حيناً بعد حين وتستنفد جهد شراستها فى وقت قليل ولا تستعيده إلاّ بعد مدة من الزمن فيستريح أهلها. ولكن بين النساء من تعد من أهل الخير والتضحية ومحبة ذويها وهى لا ترفع صوتها فى شراسة، ولكنها لا تفتأ طول يومها تنكد حياتهم بصوت منخفض باللوم والشكوى والتأنيب والمخالفة وبتذكيرهم أحزان أمس وما قد يتوّقع من أحزان غدهم، وتبكي إذا سمعت خبراً ساراً، كما تبكى إذا سمعت خبراً محزناً، فهى دائماً بين بكاء السرور وبكاء الحزن. وهذان الصنفان مشاهدان فى الرجال أيضاً، وإن كان البكاء أغلب على النساء، فأى الصنفين أثقل على القلب؟ المشاهد أن الناس يفضلون الصنف الأول مهما كانت شراسته؛ لأنه يعطى معاشريه فترات راحة. ومن أجل ذلك قد يمدح معاشر الرجل الشرس هذا الشرس فيقول (قلبه طيب - أو قلبه أبيض) وربما كان السبب أن صاحب الوقاحة والشراسة إذا هدأت حدة طبعه شعر باعتدائه على الناس بهما، فيلين ويلطف، وملاطفته لشدة اختلافها عن شراسته ولأنها غير متوقعة تكون ذات أثر أعظم فى النفس ممن ملاطفته الناس أمر معتاد مألوف. أما الملاطفة الممنوعة النادرة فهى تفاجئ النفس مفاجأة سارة كما قال الشاعر (أحب شىء إلى الإنسان ما منعا).

أما الرجل والمرأة من الصنف الثانى فإنهما لدأبهما على الشكوى والتلملم واللوم والتذكير بالأحزان يكادان يبلغان بأهلتهما إلى درجة الجنون، وأشد من

(١) المقتطف: أول مايو سنة ١٩٤٩.

هذين الصنفين الرجل والمرأة اللذان يجمعان صفات الصنفين: شراسة متقطعة وتعلماً دائماً.

٢ - للطبيعة لغة، وهى لغة صدق لا تكذب، ولكننا لانعرف قواعدها فنخطئ إذا حاولنا معرفة معناها، ونحسب أن العين الفاترة الفاتنة الساحرة ذات الأهداب الجميلة الطويلة دليل على الصدق والأمانة، ولكن صاحبها قد تكون ورثت عينيها عن جدتها، وورثت أخلاقها وطباعها عن مصدر وراثى آخر، فتجمع بين العين الفاترة التى تدعو إلى الاطمئنان، وبين الغش والمكر والخداع والشر. وهذه الفكرة أصدق من قول الفيلسوف الألماني نيتشه فى وصف سقراط الحكيم الإغريقى القديم الذى كان ذا وجه شنيع، وكان مشهوراً بالحكمة والعفة والفهم والأمانة والصدق. ولكن نيتشه الفيلسوف الألماني يقول: إن من نظر إلى صورة سقراط يستطيع أن يستدل منها على أنه كان مجرماً بطبعه. وهذه مبالغة لأمسوِّغَ لها؛ فإن خواطر الإجرام تتردد فى كل نفس كما قال فرويد. وقد يكون المجرم شنيع الوجه وقد لا يكون. فقد رأيت فى كتاب عن المجرمين صوراً كثيرة لبعضهم جمعت بين الجمال والسماحة والطلاقة؛ فالقبح أو الجمال ليس دليلاً قاطعاً على الصفات النفسية الغالبة.

٣ - الصانع الماهر الذى يحفزه ضميره الطاهر يحجم عن صنع آلة غير محكمة الصنع؛ لأنها قد تضر من يقربها أو يستعملها، ولا يعرف الصانع مقدار الأضرار المتتابعة التى تسببها سبباً عن سبب. وكذلك كل إنسان ينبغى أن يتذكر أن عمله قد يكون له نتائج بعيدة غير منظورة. وكذلك أقوال المرء يصدق فيها ما يصدق فى أعماله وربما استحال عليه أن يتحاشى كل عواقب أعماله وأقواله كما أوضح أناتول فرانس فيما اقتبس من نظراته. ولكن استحالة معرفة نتائج الأعمال والأقوال (أى النتائج والعواقب المتتابعة القصيَّات) لاتمتع من محاولة التبصر قبل القول والعمل - ولا أظن أن مفكراً فى العصور الحديثة كانت لآرائه عواقب ونتائج ومذاهب غير منظورة كما كانت لآراء جان جاك روسو - ولقد قال هنرى فردريك أمييل: كل المذاهب الحديثة المختلفة فى نواحي الحياة يمكن إرجاعها إلى روسو. ومن الغريب أن روسو كان حياً يحب العزلة وينفر من الاجتماع

بالناس . ويسىء بهم الظن . وكان يخشى وينفر من الثورة التي كان يتوقعها ويحاول منعها بالإصلاح . وكان يقدر حريات الفرد إلى أقصى حد كما فى رسالته (أسباب تفاوت الناس) ومع ذلك فقد تشعبت مذاهب وعواقب أفكاره ومذاهب معتنقها أيام الثورة الفرنسية . وهو فى كتاب (العقد الاجتماعى) يذكر آراءً استطاع بها تقييد حريات الفرد إلى حد كبير ، وهذا التناقض أيضاً ظاهر فى كتابه المسمى (إميل) فى التربية ، فهو يريد من المربى أن يترك تلميذه حراً يستتج عواقب ونتائج أعماله بنفسه .

ومع ذلك فالمربى الذى وصفه وأراده كان أحياناً يتجسس على تلميذه ويهين له النتائج التى يريد بها - ومن أجل ما وصفت من الفرق بين طبع روسو وبين آرائه يخيل لى أنه لو كان عائشاً فى باريس أيام حكم الإرهاب لسيق إلى الجيلوتين وأعدم لتخلف رجل الفكر عن رجل العمل ، وذلك بالرغم من أن حُكَّام الإرهاب كانوا قد اعتنقوا مبادئه .

وبالعكس قد يصاب صاحب الفكرة الجديدة أو المبدأ أو الشريعة لتخلف الناس عنه ، وأذكر قصة أظن أنها لدستويفسكى القصصى الروسى ، وبها يتخيل أن سيدنا عيسى عليه السلام قد بُعثَ مرة ثانية فى أوروبا ودعا الناس إلى الأخوة والتعاون والسلم والمحبة فخشى بعض الحكام دعوته وضاقوا به ذرعاً وحاولوا أن يصلبوه مع أنهم على دينه .

٤ - إن أعظم حوادث حياتنا تأتى وتروح كما يأتى الليل والنهار والنوم واليقظة والمطر والصحو والحصاد . ولانستطيع تعيين أوقاتها لها كما تشاء ، وربما جاهدنا وعملنا ، ولكن جهدنا وعملنا قليلاً الأثر إذا قيسا بضرورة المقادير التى تعمل عملها وتحديث نتائجها بالرغم منا ومستقلة عن عملنا - ولعل هذا من أسباب ما لوحظ فى نظرة فى المقال السابق من شدة اعتماد الناس على ما قد يأتى عفواً وهو غير مضمون الحدوث . ولو أن من أسباب هذا الاعتماد أيضاً ميل النفس إلى تصديق احتمال حدوث ما تود أن يحدث حتى تكاد من شدة هذا الميل تراه حقيقة واقعة . وكذلك تميل النفس إلى تصديق ما تود أن يكون من أحوال غيرها من الناس . ومن صفاتهم إن خيراً وإن شراً وحملداً أو ذماً . وكما أن النفس تميل

إلى تصديق ما تود أن يكون حقيقة فهي وإن كرهت حدوث ماتخشى حدوثه، وإذا تملكها الخوف والذعر حتى يصير الذعر مرضاً - تميل إلى تصديق حدوث ماتخشى حدوثه حتى كأنه حقيقة واقعة . ولعلَّ بعض الأمراض من هذا النوع من الوهم الذى سببه الخوف . وهذا الميل النفسى إلى تصديق ما تود النفس أن يكون كأنه حقيقة كائنة هو مسألة سيكولوجية ثابتة . وكذلك التأثر بالذعر حتى تعتقد سببه حقيقة كائنة . وأغرب من هذا وذاك أن الإنسان قد يصاب بأمراض لامن الذعر، ولكن لأنه يود أن يصاب بها، فيميل إلى تصديق ما يود أن يصاب به حتى يصاب، وإنما يود ذلك إما لينال التدليل والإعزاز والعناية والعطف كما هو نصيب المريض . وإما تشفيًا وانتقامًا ممن وكل إليهم أمره كى يكلفهم عناء فى رعايته أثناء مرضه . وإما لأنه يشعر فى ضميره أنه أراد السوء لمن لم يصبه بضرر فيدفعه ضميره إلى تصديق وقوع السوء بنفسه فيصاب . وكل هذه الأمور تذكرنا قول (جويتى) الأديب الألماني إذ قال: كما أن روما القديمة كان بها فضلاً عن سكانها من الأحياء، سكان من التماثيل العديدة المنصوبة فى كل مكان . كذلك هذه الحياة الدنيا يوجد فيها دنيا من الأوهام وعالم من الخيالات، وهى أعظم أثراً وأتم قدرة فى نفوس الناس وحياتهم، وأكثر الناس يعيش فى هذه الدنيا الثانية .

٥ - لا بدَّ أن يكون فى نفوس الناس شىء من كذب السريرة مهما تخلقوا بالعدل والصدق، فإن أفضل رجل إذا حادث إنساناً لا يود أن يؤلمه يضطر فى محادثته له أن يميل قليلاً إلى رأيه ملاطفةً له، أو لعله غير قادر على التعبير عما فى نفسه، أو لعله لا رأى له فى موضوع الحديث فيجتبى رأى غيره يسد به فراغاً فى نفسه . وكل هذه الأحوال كأموج فى بحر الإنسانية، ولا بدَّ أن يسير المرء بسفينته بينها . فمن الحكمة ألا نحقد على الناس من أجل ذلك، وألا نئس من النفس الإنسانية إذا انقادت بعض الانقياد ودلَّ انقيادها على كذب السريرة .

٦ - إذا كانت آلام كفاحنا فى الحياة لاتخلف إلَّا نفوسنا كما كانت قبلها مع ما فيها من تحيُّز للباطل ومن أثره وقلة مبالاة عظام الأمور، فإننا نكون قد تألنا فى هذا الكفاح ولم نربح فضائل أو صفات سامية . ولكن هذا الألم قد يتحوَّل

إلى عطف به نكون أكثر قدرة على فهم الأمور كما تتحوّل القوّة إلى قوة أخرى في علم الطبيعة .

٧ - خليقٌ بالمرء قبل أن يحاول فهم الكون كله - ويئس إذا لم يستطع فهمه - أن يحاول فهم ما حوله من الحياة أولاً؛ لأن الزمن كالمال إنما يقاس بمقدار حاجتنا إليه . وهذه الكلمة أوسع نطاقاً من قول الفيلسوف الإغريقي القديم (اعرف نفسك) وقد فسّر جويتى هذه الكلمة بقوله إن الإنسان لا يستطيع أن يعرف نفسه بالتأمل الفكرى وحده، بل لا بدّ أن يكون التأمل فى النفس مقروناً إلى العمل وأداء الواجب، وفى أداء الواجب اليومى يستطيع المرء أن يختبر نفسه وأن يعرفها بالتأمل، وقد أعجب كارليل برأى جويتى وأعاد ذكره مراراً .

٨ - إننا كثيراً ما نعتز بماضى حياتنا حتى ولو تغيرت أفكارنا وتبدّل شعورنا، وصرنا إنساناً آخر بهذا التغيير . ولذلك قلما نرضى عن نقد ذلك الإنسان الأول الذى كنّا فى الماضى بل نتلمس له ما يزيه كراهة لتخطئة أنفسنا القديمة كل التخطئة، وذلك لأنها بالرغم من كل شىء أساس أنفسنا الحديثة .

٩ - قلما تستطيع الأقدار أن تنتقم منا بسلاح من أنفسنا تتخذه ضدنا من تألّنا لما سببنا لغيرنا من الآلام، إلّا إذا وصف الناس عملنا فى إيّلام غيرنا بأوصاف شنيعة، أو إذا خشينا ذلك، فعندئذ يتيقظ ضميرنا ويتيقظ إحساسنا الخلقى ويؤنبنا، وربما كان لا يؤنبنا لولا لوم الناس وتأنيبهم .

١٠ - كثيرٌ من عيوب الناس وغرائب طباعهم سببها أحزان وأحاسيس وحوادث مثلّت بالنفس تمثيلاً، والحياة التافهة غير الثابتة أو الحياة الضالة التى يحيها إنسان والتى نلوم صاحبها عليها قد تكون كحركة الرجل الذى فقد بعض أعضائه وقد تكون نفسه كجذع الشجرة التى قطعت غصونها وأوراقها - وهذا قول مبكر فيما يسميه علماء النفس فى هذا العصر العُقَد النفسية .

١١ - إننا نستطيع أن نحس روح الله فى كل أمر . ففى الأعمال والمخترعات الكبيرة أو فى أعمال الصناعات الصغيرة نستطيع أن نرضى الله بأعمال أيدينا كما نرضيه بأعمال نفوسنا، وأن نعمل الخير ونتقرّب إلى الله بالأعمال المنزلية

والزراعية، كما نرضيه ونتقرب إليه بالصلاة؛ لأن كل عمل يؤدي بصدق وأمانة إنما هو تقرب إلى الله.

١٢ - ولكن بعض الناس إذا أدوا الصلاة يوم الأحد في الكنيسة حسبوا أنهم أدوا كل واجبه نحو الله فتستريح ضمائرهم وتجز لهم أموراً كثيرة ويعدون الحياة منصباً مربحاً، أو متجرأً مكسباً، بدل أن يعدوها واجباً يقتضى الجهد والتضحية والعمل.

١٣ - إن قول شكسبير فى قصة ما كيبث: إن الإنسان لا يستطيع أن يكون فى أمور مختلفة فى وقت واحد إنما يراد به الأعمال ولا ينطبق على الإحساسات والخواطر، فإن لحظة واحدة صغيرة أو أقل من لحظة قد تكون بين خاطرة الميل إلى القتل فى النفس، وبين خاطرة الرجوع عنه والتوبة والندم. وربّ دقيقة واحدة قد تجمع بين النزعة الشريفة والنزعة الدنيئة فى النفس. فالحقيقة هى أن النفس الإنسانية لا تجمع بين الأضداد فحسب، بل تجمع بينها فيما يكون أشبه بالوقت الواحد. وهذا ما لا يفطن إليه الذين يحكمون على النفوس بخطراتها ونزعاتها.

١٤ - فىنبغى أن نصصح أحكامنا العامة على الناس تصحيحاً دائماً مستأنفاً أولاً فاولاً بالخبرة وضرورات الحياة وبما فى النفوس البشرية من قهر وإلزام مع مراعاة الواجب المفروض وتنوعه فى الحالات المختلفة. فإذا نقدنا إنساناً نقدناه من غير التجاء إلى الكذب والباطل والمبالغة. وهذه أمور قد تتسرّب إلى رأينا: إما عن طريق الشهوات، وإما عن طريق تطبيق أحكام عامة مطلقة وضعها من لا يميز الأمور بالتجارب والخبرة.

١٥ - كثيراً ما تدهشنا الشدة ونباغت بها من أناس عرّفوا باللين. والسبب فى ذلك أن لينهم من اطمئنانهم إلى عودة وقوع الأمور المألوفة المعتادة. فإذا جاء غير المألوف ارتاعوا وظهر ارتياحهم فى شدتهم وعنفهم. ودلّ ذلك على نقص فى خبرتهم لأمر الحياة ونفوس الناس.

١٦ - يخيل لنا أن بعض الناس يجدون لذة فى حماقتهم وشراستهم وغيظهم

حتى أنهم يحرمون أنفسهم من مسرات كثيرة ممتعة، كي يتمتعوا بلذة الحماسة والغيظ.

١٧ - قد تجتمع في بعض النفوس صفات هي الشدة والشعور بأنها صالحة وحب السيطرة على غيرهم مع ضيق في الفكر والخيال. فإذا اجتمعت هذه الصفات في أناس لم يكن سبب نفورهم من إنسان واضطهادهم إياه تلك المعرفة الممزوجة بالجهل والشك والتي يسمونها الحقيقة. ولكن السبب أنهم في حاجة إلى أن يملئوا فراغهم من الفكر، وأن يسدوا ثغرة في التأمل، وأن يخفوا خلوهم من الحكمة، وأن يشبعوا حب سيطرتهم على غيرهم، وأن يباهوا الناس بصلاحتهم، وأن يقنعوا غيرهم به - وهذا إذا كانوا على شيء من الفضل. وقد يكون السبب شعورهم بنقيصة في أنفسهم يقتضون لها بالتشفى وبالکید لغيرهم، أو يكفرون عنها بانتقاص غيرهم واضطهاده.

١٨ - ثق أنك إذا رأيت إنساناً يدعى أنه أطيب نفساً ممن هم حوله، فهو إما أن له أرباباً يخفيه بادعاء ذلك، وإما أن نفسه قد تغلغل فيها الكبر الروحاني ودنس العجب النفسى وهذان الكبر والدنس يختلطان بفضله فيفسدانه كما تفسد العفونة المأكولات.

١٩ - تنتقل النفس من الصدق إلى الغش في معاملتها لنفسها. ثم ترى الغش خطة ضرورية تسوغها بلباقة، فترى جمال الأعمال وقبحها من نسيج واحد. وكما أن الدول قد تأخذ على دولة عملاً عدائياً ثم تدعن لما يسمى في عرف السياسة الأمر الواقع. كذلك النفس تدعن للأمر الواقع منها حتى تفاجأ بالقصاص.

٢٠ - إن الرجل الذي ليست له ثقة بنفسه قد يكتسب ثقة بنفسه إذا عاش رجلاً له ثقة كبيرة بنفسه؛ إذ أن للثقة بالنفس عدوى، ومثل ذلك مثل الذي أصابه البرد يأنس إلى من لفحه الحر ليدفئ نفسه بحره فيقل أثر القر فيه - على أن هذه المعاشرة قد تأتي بعكس ذلك إذا خشى الأول أن يقحم نفسه فيما يقحم الثانى فيه نفسه بالإقدام من ثقته بها، وفي مثل هذه الحال إذا لم يُجَار الأول

الثانى فى إقدامه وثقته بنفسه . يوشك أن تنفصم عراً الصداقة والمعاشرة، إلا إذا لم يكن ملزماً بهذا الإقدام . وإذا أقدم وحيل بينه وبين باعث ثقته ولاقى صعوبات أو خصومات كُشفَ ضعفه . وإنما مثله حينئذ مثلُ السلك الذى يُزودُّ بالكهرباء فإذا فصل عن مصدر الكهرباء فقد قدرته الكهربائية .

٢١ - إن المرأة مهما كانت معجبة بنفسها لاتشعر بجمالها وحلاوة أنوثتها شعوراً تاماً إلا إذا أحبها رجل . فإن حبه يزيدُها ثقةً بقدرة ملاحه أنوثتها، فتتيقظ وتحس إحساسات ماكانت تحسها من قبل . وهذا هو سبب قدرة الرجال على خداع النساء؛ فإن الرجل إذا أتقن تمثيل مظاهر الحب أحست شكراً له وعطفاً عليه، وهذا ما كان يصنعه لاندرو قاتل النساء فى فرنسا، فإنه كان يقنع المرأة أنها ذات جمال وحلاوة أنوثة، فتتقاد له وتطيعه طاعة من نؤم تنوياً مغناطيسياً، إذ الإيحاء النفسى شبه تنويم .

٢٢ - فى بعض الأحيان ترى سفينة تعجب الرائي وتحسبها محكمة الصنع وتقبل شركات التأمين أن تؤمن عليها، فإذا صادفتها أول عاصفة شديدة غرقت واتضح أن ذلك كان بسبب عيب خفى فى بنائها، ونقص مستور فى تركيبها . وكذلك الإنسان يعجب الرائي فإذا صادف أول محنة أو امتحان لنفسه ولقدرته النفسية أو بدهه خطب لم يكن يتوقعه أو أمر من أمور الحياة مفاجئ غير منظور ظهر من طباعه ماكان خفياً وتغير أو تدهور أو تخبط، فيكون حاله كحال تلك السفينة .

٢٣ - يُشبه بعض المؤلفين طبيعة الإنسان بطبيعة الموجودات ويقولون: إن الطبيعة تصلح ما أفسدته بالضياء والماء والهواء ويتجدد النمو، ولكن الشجرة التى قد اقتلعت أو صعقت لاتعود إلى النمو وإن نمت غيرها، والتلال التى بعثرت لاتتجدد وإن نشأت غيرها، فليس هناك إصلاح حقيقى تام فى طبيعة الموجودات أو فى طبيعة الإنسان .

٢٤ - يقولون إن الإنسان إنما يجنى فى الحياة ما يزرع، ولكن هذا ليس كل الحق، فكما إن الإنسان يجنى ما يزرع فإنه قد يجنى ما لم يزرع، كما أنه قد يجنى

من النبات والزهر والأشجار مالم يزرع وما ينمو بنفسه أو بعمل غيره، وهذا يصدق في الخير كما يصدق في الشر.

٢٥ - إذا عظم إحساسنا إلى حد كبير نما الإحساس إلى درجة يخلو فيها من حب النفس الذى ابتعثه ويصير ناراً تتطلب كل شىء فى النفس وقوداً لها وغذاءً للهيها. وهذا يفسر لماذا ننكر أن إحساسات المرء وأعماله الصادرة عن إحساساته التى تضره سببها الأثرة وحب الذات غير مدركين أن الإحساس فى درجاته المختلفة وحالاته المتغيرة يتغير طبعه وتتغير نتائجه.

٢٦ - قد ننسى أن الإنسان تصيبه عواقب مايجنى غيره وإن لم يكن هذا الإنسان له صلة بالجناية واشتراك فيها. أليس العدل نفسه يعاقب من هم فى حاجة إلى الجانى أو لهم به صلة إذا عاقبه فيعاقب من يعول إذا انقطع عنهم رزقهم بالعقاب أو يعاقب أقاربهم فى سمعتهم وباضطهاد الناس لهم وذمهم بسبب جريمة قريهم.

٢٧ - فى أوقات الحزن الشديد تكون فترات تتخللها. وفى هذه الفترات لايتذكر المرء حزنه، بل يتذكر حادثاً تافهاً لاصلة له بحزنه كأنما تعفيه طبيعته فى تلك الفترات من تذكر حزنه والانشغال به كى يستطيع أن يعاود تحمله وهو فى تلك الفترات لانشغاله بالأمر التافه بدل الانشغال بموضوع حزنه يكون كأنه أصابه بله مؤقت.

٢٨ - أهل الريف إذا كانوا فى بقعة منعزلة وحلَّ بأرضهم غريب أساءوا به الظن، كأنه أتى إليهم من عالم مظلم مجهول كالعالم الذى تهاجر منه الطيور شتاءً إلى أرض الدفء والنور؛ ومن أجل ذلك يتوقعون من ذلك الغريب أى شىء غريب مهما كان عمله وقوله مطابقاً للمألوف، ومهما صدر من نفوسهم مما يخالف العرف المألوف، فإذا ارتكب إثماً أو جنى جناية بعد زمن طويل وبعد مزاوله الخلق المألوف زعموا أن ذلك مصداق لما توقعوا منه من أول الأمر. فالذى يولد بينهم يكتسب بولادته شيئاً من الثقة به والألفة له، أما من لم يولد بينهم فكأنما وُلد وجاء إلى هذا العالم فى نظرهم بطريقة غير طبيعية مثل طرق

الشعوذة وحقيقة هذا الحذر من المجهول مشاهدة حتى فى نفوس الناس إذا حذروا ممن ينقطع عن زيارتهم ومعاشرتهم أو مجالستهم، ولعلها ناشئة عما فى النفوس البشرية من أمور مجهولة ومن غريزة تمكنت فى النفوس من قديم الزمن من عهد الكهوف وسكانها، ومن عهد كان كل إنسان يخشى كل إنسان ويصون حياته بذلك الخوف..

٢٩ - إن بعض ما يسميه الناس خيالاً إزاء به قد يكون تعلقاً بحياة أتمّ وأعظم وبحقيقة متوقعة فى المقبل من الدهر، فبطولة الواحد الفرد أو الأحاد القليلين التى لا تؤثر أثراً كبيراً قد يعدها الناس تعلقاً بالخيال، ولكننا نخطئ إذ نقسم البطولة الإنسانية وهى متصلة مهما خفى اتصالها وكل منها قدوة. وهذا الخطأ كالخطأ فى تقسيم وحدات الجيش إلى آحاد أو الخطأ فى تقسيم أشعة الضوء محاولة لمعرفة قدرة الجيش أو الضوء.
